النهايه

نرمين السري

النهايه
نرمين السري
تدقيق لغوي : د/محمود عوض الله
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: ٢٥٤٤٤ / ٢٠١٦
ترقيم دولي: 278-977-8594-06-7

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

النهايه

نرمين السري

دار فصلة للنشر و التوزيع

إهداء

الي أولئك الذين لم يبق بداخلهم شيء مني...

إلي ذلك الذي مضي دون تنبيهُنا..الذي ملّ
و علمنا ألا نثق بأحد...أياً كان ..

- ذلك الذي سمح لنا بالأطلاع علي تفاصيل وخفايا حياته و سمح لنا بأستخدامها ...الذي يتألم في صمت ..
جزيل الشكر لك - .

تأمل

تأمل ما حولك .. تأمل جيداً ... ماذا تري ؟!
مخلوقات ،بشر،جماد ... اثاث منزلك ! او مقاعد قطار تستند برأسك علي أحد مقاعده .. كوب القهوة أمامك ! ماذا تري في كل هذا !!
لا شيء .. نعم أنها الأجابة المنشودة لكل هذا ..
لا شيء مما سبق يتساوي مع أبتسامة ترتسم علي وجهك في لحظات صفاء ذهنك ..
أبتسم لهذا العالم و أترك ما بداخلك .. اعطني يدك لنذهب ...

ضجيج شديد بداخل القاعة،يركض سريعاً ليلحق بالمحاضرة الأولي ،صدره يعلو ويهبط من شدة التعب، يصعد الي المنصة في النهاية ..
نظر الي الأوراق أمامه بأهتمام شديد ثم رفع رأسه الي مَنْ في قاعة المحاضرات، فصمت الجميع و أنتبهوا له .. امسك بطرف قميصه الابيض الكتاني ورتبه جيدا ثم لامس بكفيه راسه ليتأكد من أن شعره الاملس ما زال مرتباً
التقط أنفاسه و قال متلعثماً :
-اليوم لن أعطيكم محاضرة،أو بمعني أصح لن أعطيكم محاضرة في مجالنا،سأعطيكم محاضرة في علم النفس، أيضاً اود ان أُسميها تجربة خاصة للغاية-
نظر الجميع الي بعضهم البعض في تعجب ساد وجوههم و تكاد نظراتهم تشي بما تعجز السنتهم عن قوله كما توقع هو تماماً ..
استطرد :
-الكل منا يمر بمراحل عدة في حياته اليومية،ولكي نعبر من تلك المراحل ، لابد من إدراك ماهية تلك المرحلة وما ثمرتها،وهل سنقدر علي تطبيقها علي أرض الواقع أم لا..
ثانيا..اليوم قد يكون لحظة فاصلة في حياة البعض وقد يمر علي بعضكم مرور الكرام،لكن أعتقد أنني مكلف من ذاتي بإطلاعكم عن تجربة هذا الشخص ..
ثبتوا عقولكم في موضعها،أصغوا الي بقلوبكم قبل أذانكم،كونوا معي أينما ذهبت،أذا وجد احدكم معضلة ما فلا حرج من السؤال ، ضعوا الأقلام ..
هدوء ...

قد يبدو لك هذا النهار اعتياديا ، لكن بالنسبة لي لم يكن كذالك . .
انها البداية ليس بعد. . اذا اردت معرفة نهايتك . .
اتبعني . . .

كالعادة جاءت الممرضة بعد ساعتان استهلك فيهما خمس سيجارات و كوبان قهوة و قدمه اليسري تهتز بشدة و توتر ..
أمسك هاتفه و ضغط العديد من الارقام ثم رفعه علي أذنه ، تمتم ببعض الكلمات الغير مفهومة بصوت خفيض ثم انزل الهاتف و نظر اليها رافعاً حاجبه الأيمن مع بعض الصمت و السكون الذي ساد المكان ..
-أنت تجلس هنا منذ ساعتان،لما لا تتفضل بالدخول - قالتها امرأة بدينة تبدو في نهاية الاربعين ببغض ..
-ألا يمكنك قول هذا منذ البداية - قالها ثم زفر في ضيق ..
نهض من مقعده الذي مل جلوسه عليه و تقدم في الممر الطويل بخطوات ثابتة و هادئة تكاد لا تسمعها ، الي أن وصل الي الغرفة لم يكن هناك الكثير من الأضواء فدفع الباب بهدوء و دخل ، جلس في مكانه المعتاد دون التكلم.
نظر له الأخر الجالس علي المكتب ، ساد صمت مقلق بينهما لمدة خمس دقائق قطعه صوت السيدة القادمة من الخارج
- ماذا أحضر لك ؟ -
- كوبان قهوة -
لطالما كان إحتساء القهوة معه كعادتهم سوياً يشعره بإهتمام أحدهم لأمره ..
-لكن هنا .. -
-أجل،إثنين - أكمل بابتسامة باردة ..
أغلقت الباب ورائها بهدوء غير ملحوظ ..
أستطرد :
-أريد أن أتقرب من الله ! -
-ولما لا ،الشيطان ؟! -

-أنا بذاتي أصبحت شيطاناً -
نظر الي أسفل مقعده و أبتسم بغموض ثم أعاد النظر اليه وقال: حدثني... حدثني يا صادق عن ذاتك قليلاً ..

* * *

في مطلع الثاني و العشرين من عمري ، أنهيت مشواري الجامعي ، البداية أمامي مشرقة .. شابٌ في بداية العشرينيات من عمره تخرج من كلية الهندسة قسم الميكانيكا سوف يبحث عن عمل ويعمل به ويجني الكثير من الأموال ، وبجانب ذالك سيكمل مشواره الكتابي الذي لطالما حَلُم به منذ صغره .. نشر روايته الاولي و أن تتصدر قائمة الأكثر مبيعاً، لطالما رمقت كتبي و أسماء مؤلفيها وتخيلت أسمي بينهم محفوراً علي أحد الكتب بجوار نجيب محفوظ ، دان بروان و ديستوفسكي و ج.ك رولينج..كل تلك الأحلام تبدو بسيطة و سهلة التحقيق بالنسبة لشاب ما زال في سن العشرين،لم تلقنه الحياة ما يكفيه من الدروس ليتوقف عن الحُلُم..
أتذكر هذا اليوم و كأنه لم يمر عليه الا بضع ايام قليلة،حين حصلت على شهادة تخرجي كنت في قمة سعادتي سوف أحضرها و أذهب بها الي المنزل لاحتفل مع عائلتي الصغيرة .. لحظة !!
تذكرت أن ليس لي عائلة و أنني أعيش وحيداً منذ عامان ، جارتي ترعاني علي قدر المستطاع ..
لكن لا بأس بالاحتفال وحدي مع بعض الرفقاء..
لم يكن لي رفقاء كما تعتقد ، كانوا مجموعة من الكتب،والدي -رحمه الله- أتذكر حينما كان يأتي من الخارج و بيده ثلاثة كتب تبلغ اقلها الأف صفحة، وفي اليوم التالي يتمم قرأتهم و يعيدهم !..كان كما يقولون عنه دائما (دودة قراءة) ، هذا كل ما بقي لي من والدي بجانب القليل من الأموال استولي أعمامي علي نصفهم و لم يتبق لي الا القليل لأكمل بهم دراستي و ها أنا أخيرا انهيت دراستي لأبدأ حياة جديدة تماما ..
تحدثت هذا اليوم مع جارتي لتوفر لي عمل بجانب اموالي لأكتفي بالأنفاق علي

نفسي و أريحها من عبئى ،لكنها قابلت كلامي بسخط و غضب شديدان ثم قالت لي أنني مثل أبنها الذي لم تلده ،فلم يكن أمامي سوي أن اطرق رأسي لها خجلا و أشكرها علي تحملها لي كل تلك السنين ..
لكن الحقيقة غير ذالك ، أن تريد المال من أجل العمل فى الأساس
حينها أصبت بأحباط شديد و طردت فكرة العمل من رأسي تماما ، تمر ستة أعوام و ما زلت لا أجد عمل و أعيش علي نفقات جارتي و الأموال التي تركها لي أبي تكاد تنفذ ..اصبح في مقدوري البحث عن عمل ، لا أريد العيش كطفل مدلل أكثر من هذا عليّ الاعتماد علي نفسي قليلا ..

* * *

عقد كلتا يداه معاً و نظر من أسفل نظارته مخاطباً اياه :
- لِمَا لمْ تكمل كتابة كما كنت تَحلُم ! -
- بالفعل حاولت أن أكمل، لن أحكى لك عن كم التثبيط الذي قابلته و مصطلحات كثيرة من نوعية -
-أنتَ كاتب فاشل- و ... الخ
- إذن.. حدثني عنها -
- هههه ...عنها !! -
قد يمر عليك وقت تعلم فيه أنك تتنفس...ولكن لا تشعر بالهواء يدخل الي رئتيك...وبما أنك لا زلت حي ف أنت بالتأكيد تتنفس..
الفراغ في داخلك...برودة..
تتسائل هل أفكر الآن؟!...أم أن عقلي قد توقف
كل شيء ثابت..فقط الزمن يتحرك...
شعور بالغثيان..دوار...ولكنك لا تسقط.
ربما لو سقطت فاقدا وعيك...قد ينكسر هذا الصمت القاتل....ولكنك لا تسقط
أحلام يقظة....لقطات وصور غير واضحة الملامح بعضها قديم...والآخر جديد..
تجدها أمام عينيك...
تستلقي علي ظهرك، تشعر وكأنك كنت تجري في الوحل أو تسبح تحت عمق

كبير ف الماء..
أطرافك تطلب الراحة...الراحة من الراحة !!!
قد تحدق ف الفراغ...أي سجن هذا؟!!
سجن من العدم ...من الفراغ...من السكون القاتل...
تشعر بالخوف الشديد من لا شيء ...أو من شيء لا تعرف ماهيته...
قد تشعر بالرغبة في فعل بعض الأشياء...ولكن تظل تلك الرغبة سجينة قفصك الصدري..ولا تحرك ساكنا
ولا تجد ما يكسر حاجز السكون
قلبك نابض...ما يمنعك من النهوض ؟!!!
لا تدري...ما هذا العجز ؟!!!
حتي جسدك لا يساعدك علي النهوض..
لما لا تسقط فاقدا وعيك...لعل ذلك لأنك لا تملك الوعي لتفقده
لم يعد أمامك إلا مناجاة ربك ..
وماذا وان فقدت القدرة علي ذلك؟!!...ماذا وان لم تجد ما تقوله ؟!!
اللعنة...ما هذا؟!...لسانك أيضا عاجز؟!!...

* * *

أتكأت بساعدي علي قدمها اليمني و أشعلت سيجاراً ، نفثت دخانه في وجهها بغضب ،فقامت من جواري مشمئزة مني .. و جلست علي الأرض ، اسندت رأسها الي الخلف وأمالته ناحية النافذة فحركت نسمات الهواء الرقيقة خصلات شعرها الكستنائي ، يلامس الهواء زراعيها المكشوفان فترتجف قليلاً ..ما زالت تتأمل وجهي العابس منذ ساعات تحاول أقناع نفسها أنني سعيد و بخير.. ربما لا تجد ما تضيفه أو تخشي أن تتحدث فتكسر بكلامها قدسية تلك اللحظات الرتيبة في حياتنا رغم تشابهها مع لحظات أخري في الحياة ، أو ربما من كثرة ما تحمله من مشاعر رغماً عنها لا تستطيع أخراجها في صورة كلمات ، لا زلت أنفث دخان سيجارتي في الهواء ،أردت اضافة بعض الاثارة الي جلستنا فقمت من مكاني و خرجت الي الشرفة ثم صعدت الي الطاولة، تبعتني الي الخارج وقطعت

صمتنا بصوتها الخفيض ..
-الي متي سنظل أنا وأنتَ في شجار لا نهاية له.. رجل عنيد وأمرأة عصبية وفي النهاية تأتي لتقبل رأسي وتقول لي أعشقكِ ! -
- الي أن يرانا أولادنا ونحن نتشاجر وأتي لأقبل رأسك وأقول لكِ أعشقكِ.-
التقطت السيجار من فمي ووضعتها في فمها ، رغم أنها لا تدخن الا انها ارادت أن تثبت لي أنها لا تزال بكامل قوتها وأنها قادرة علي تحمل الكثير منى ..
- أتعلم...المشكلة ليست منكً بل مني أنا، أنا التي لا أعلم كيف أبيعُ..كيف أكره..كيف أري عيوب الأخرين..متمسكة وبشدة بالزجاج المكسور حُبً في كوبٍ غير موجود،أنا التي لا تعلم كيف تترك مكانها..أنا المخطئة وأنت على صواب يجب أن تتغير الأمور،أدعو الله أن يزيد كرهى لك..لكن لا أريد أكثر من ذالك.-
- لم أؤذيكِ وأنتِ تعلمين ذالك.. لم يجبركِ أحد علي إكمال الباقي من حياتك –وإن كانت حياه- مع آلة صدأة لا تفعل شيء سوا إصدار صرير يزعج الأخرين فقط..-
-عندما تصبح أقرب الناس لي وتتركني أهوي،وكأنك تشير بسبابتك معهم على أنهم صواب..أترون أنها مخطئة..أنها تسقط كالهزيلة ،بحق كل ما أعطيتك أياه ما هذا الجحيم !!-
- أخبرتُكِ من قبل ..غادري ،لا أعرف شيئا يسمي -وجع ،،ولقد مللت-
كنت أعلم أن رغم برودة كلماتي و حدتها و أنها تجعلها تغضب أكثر و تفور الا أنها تهدأ بعدها تلقائياً كالطفل الرضيع الذي يصمت بعد صراخ أمه في وجهه، لكن تلك المرة لم تهدأ تماما و زادت غضبا بل وصمتت قليلا و تدلت شفتاها و ملأت الدموع ارجاء عيناها، لم أبالي قط ،أطفأت سيجارتي على الطاولة بجاوري، كثيرا ما كانت تلك الحركة تجعلها تزداد عصبية و اشمئزازاً .
-للعلم...أبي سيأخذني معه للخارج وسأتزوج قريبا-
-حقاً ! بارك الله لكما -
- سأتزوج هناك ،أنه رجل رائع و يعمل بوظيفة مرموقة -

لن أطلب منها تلك المرة أن تنتظرني،تكفى كل تلك السنين ..لن اجعل أمرأة حزينة تتزوج من رجل بائس يشفق لحالها لينجبوا أطفال مشوهين نفسياً يزيدون العالم خراباً .. يكفي حقاً...

ربما تجاوزت الحد في كلامي تلك المرة فما كان منها الا أن نظرت لي نظرتها الباردة ولفت زراعيها حول جسدها لتغطي ما ظهر منهما ،ارتجفت ارتجافة خفيفة ،أنهالت في البكاء لكنها دائماً ما تمسح دموعها سريعاً من علي وجهها كي لا أراها تبكي ،لكنني كنت أدري بكل قطرة تنزل من دموعها..

- لا تتركني وحدي -

لم أجيبها،نظرت لها ببرود وأكملت تنفس سمومي ..

-هل تعتقد ،أننا سنظل هكذا كثيرا !!-

- ويعجبني كثيرا،لم تقولي لي .. ما هذا الداكن أسفل عينيكي ..-

أرتسمت علي شفتاها ابتسامة جانبية ساخرة و نظرت لي بتحسر:- أحب الاسود كثيراً .. -

.. جذبتها ناحيتي بسرعة و أحتضنتها ، لم تمر الا ثوانٍ و قد هدأت وسكنت بداخلي ، وكأن تلك البقعة فقط مخصصة لها لتحتويها بكل ما تحمل من عصبية و حب و تقلبات .. فقط لها .. هي .

* * *

حاول مسح دموعه بطرف قميصه و أكمل بصوت متقطع : نصيحة لك كصديق .. لا تعبث بفتاة مثلها ..يمكن لدموعها أن تغرقك في بحر لا نجاة منه .. فقط الهلاك ...

- ....

* * *

رفع أحد الحضور يده بتردد ، فأشار له قائلا:

-أنتَ..هناك ، نعم.. تفضل . -

تنحنح قليلا ثم قال:

- لماذا وثقت به ؟ -

- لماذا؟ الثقة لا يجب أن تقرن بـ لماذا،علي سبيل المثال لا يمكنني سؤالك لماذا تثق في زوجتك،إذ ويبدو أنك متزوج من الخاتم في اصبعك..-
- ليرحمها الله ..-
اطرق رأسه و قال بصوت عميق :
-ليرحمها الله ،لو سألتكُ لماذا تثق بها هل ستجد إجابة..لا أعتقد ،تماماً كما حبك لها! أذا صار للحبُ أسباب لن يبقي حباً...كذالك الثقة إذا بنيت علي أسباب فبالتالي هذه الأسباب مع الوقت ستختفي.. بمعني لن يصبح هناك ثقة ... -
ظهرت علي وجهه علامات الرضا و الأقتناع بالأجابة فأرتسمت علي شفتيه أبتسامة خفيفة .

* * *

- بهذه البساطة ؟
نظر الي أسفل و قام برفع عينيه مع ابتسامة غامضة ....
- و أبسط مما تتخيل .
- أكمل قهوتك بني ..أكمل .
نهض من مقعده و دار ف الغرفة قليلا و جلس علي الأرض في ركن هادئ .. ضم قدميه الي صدره . بدأ في البكاء و النحيب كالطفل الصغير.
لم يعرف الأخر ماذا عليه أن يفعل ف نهض لاحتضانه ورتب علي كتفه .. جلس بجواره و أكملوا الحديث ذاته - لا اريدك أن تسيئ فهمي، يكفي أن تعلم ما اكنه لك من تقدير..أنا وانت واحد لا ثاني له ..

* * *

لن أنسي ذالك اليوم حيث استمر نحيبي في غرفتي وحيداً لمدة ثلاث ساعات .. الحالة ذاتها ،أجلس علي الارض و أضم قدمي الي صدري و أهتز بشدة ..
جائت جارتي لزيارتي و أخبرتني أنها تريد الحديث معي في أمر هام ..
- أري يا بني أن تُكمل دراستك و تحصل علي الدكتوراه وتعمل بالجامعة،حينها يمكنك تكوين نفسك.. أنا لا أقول لك هذا لأنك تثقل من الأحمال علي كتفي،حقاً لا لو بيدي لحملتك طوال عمري، لكنى أخشي أن يفوتك العمر ، بني ..أنت

تعلم أن الله لم يرزقني بالأولاد ولو كان لي ولداً سيكون أنتَ..
ربما كلماتها كانت ثقيلة علي صدري و لم أتحملها لكنها كانت حقيقة حتماً ..
- سأكمل بالأعلام ...سأكمل كتابة ..
نظرت لي بيأس و تحسرعلي حالي تري أمامها شاب في أواخر العشرين من عمره لا يفعل سوي السهر ليلا و اصطحاب الفتيات الي منزله..أطرقت رأسها وقالت لي بهدوء:
- كما تشاء يا صادق ..

* * *

أمتدت اشعة الشمس الحارة داخل ساحة الجامعة في ذالك اليوم القائظ من أيام صيف أغسطس ..
مددت يدي في جيبي لأخرج منديلاً وأمرره علي جبهتي التي تزاحمت قطرات العرق عليها ..
أعتدلت في وقفتي،واحكمت ربطة عنقي جيداً ،أجول بنظري حول الجامعة،أستعدت الكثير من الذكريات القديمة في تلك اللحظات القليلة..
تقدمت الي الأمام صوب مدخل المبني لأختلط بالتجمعات الكبيرة من الطلبة المتزاحمين و الملتسقين ببعضهم البعض، بدأت المحاضرة بدخول المحاضر و ها هو كما تتصوره أنت الأن :
شعر ابيض يشوبه شعيرات سوداء صغيرة تكاد لا تُري..صلع يغزو مقدمة رأسه من الأمام،وجه تغزوه التجاعيد و أبتسامة مصطنعة ،يبدو أنه في السبعين من عمره،بدلة سوداء و وقفة ثابتة ..
بدأ يلقي التحية...
بدت طريقة كلامه متريثة كثيرا والتي توحي أن أهم ما يدور حوله الحديث لم يأت بعد،كمن يحاول استجماع افكاره،حينها أدركت أنه لا يعرف ما سيقول..
.وأن القادم من حديثه سيكون مفاجأة له هو نفسه ...أمسك قلمه بيمينه و بدأ يهزه في حركة دائرية و قطرات العرق تتساقط من علي جبينه واحدة تلو الأخري في شكل رأسي، يبدو أنه يحاول أضاعة وقتي في التفكير في أمر يشغل

ذهني به حتي يستعيد ذاكرته من جديد...أشار لي بأصبعه السبابة أن اذهب الي الخارج يبدو أنه لاحظ شرودي أو أن العالم وجد في وجهي السلام و الهدوء والبلهاء فلا بد أن يزعج أحدهم اليوم وإلا سيحترقون...
..لا بد!
حسناً...لا أريد الدخول في تفاصيل مثيرة بشأن هذا اليوم أكثر من هذا ،رتيب كالعادة تشوبه القليل جدا من الإثارة ..
أنهيت يومي الأول في تمام السادسة،مرت تلك الساعات وكأنها عام أخر،فاتجهت الي المنزل لأخذ قسطاً من الراحة ، ألقيت بجسدي و لم أشعر بشيء الا حين أستيقظت و بدأت أفتح عيني لأشعر ببلل يغزو بنطالي و قميصي !! من الظاهر أنني نسيت أن اشعل المكيف حين وصولي.
كانت تجلس في الوضع المنتصب الشهير،أستنتجت أنها تجلس هنا منذ ساعات من أكوام مخلفات الطعام بجانبها.
-وصلتني رسالتك ،ماذا الأن !
تنحنحت قليلا ثم أعتدلت في جلستي ..
- أشعر بالملل...أليس دور المرأة تسلية رجُلها ..
- أنت تمزح صحيح،جلبتني في منتصف الليل لتخبرني بتلك التراهات!صادق.. ستصيبني بالجنون قريبا.
- سترقصين ؟
- بالفعل..
نهضت من مكاني فوراً و أمسكت بيدها و جذبتها معي الي الخارج والتفت يداي حول خصرها و أحاطت هي زراعيها حول رقبتي لتقرب وجهي من وجهها فلا يفصل بيني و بينها الا بعض السنتيمترات،بدون موسيقي او حتي نغمات عذبة أو صاخبة،يكفي ما يصدره الهواء من ضجيج حولنا ..أشعر بتلك النغمات العذبة تتسلل الي اذني في سلاسة..مزيج من السيمفونية العذبة من الضحكات بدأت تتوالي اسفل المنزل ..
أي امرآة تلك التي تتحمل أن تخرج في منتصف الليل تكاد لا تشعر بأطرافها

من برودة الليل و الهواء الذي يداعب أطرافها ،لم تعترض او توجه لي سباباً..أنها لا تمل و لن تمل قط ،، ما الذي يجعلها تستمر مع بشري عديم النفع مثلي الي الأن!! لما لا ترحل في هدوء و تتركني وحدي ..
سحبتني الي الداخل،داخل الغرفة و دفعت بي علي الفراش و تركتني وغادرت بدون كلام ..

* * *

بينما هي تغادر استقلت المصعد فالتقت بشاب وسيم يبدو في مقتبل الثلاثين من عمره شعره مجدول من الخلف و بلحية تزين وجهه ،طويل القامة و صدره فسيح..هذا هو الفتي الذي تحلم به كثير من نساء عصرنا هذا،لا أعلم متي مُلأت عقولهن بهذا الكم من التفاهة و السطحية فحين تختار شريك حياتها تميل الي فتيً مفتول العضلات ووسيم ولا ننسي اللحية السوداء،كل هذا مع الوقت يزول و ينتهي بهم الحال ليصبح الوسيم كهلاً سمين يجلس علي أريكة ويرتدي ملابسه الداخلية و في يده كوب قهوة و اليد الأخري سيجاراً و كأنه أعتاد تلك الوضيعة،فيبثق بداخل دلو معدني بجانبه حتي لا يتعب قدماه و ينهض،ويظل يزمجر طيلة اليوم الي أن يحل الليل فيستلقي علي فراشه كالبعير بلا حراك و لا كلام،جثة هامدة بلا أي مشاعر تجاه تلك البائسة بجانبه ،ولا أريد التعميم حتي لا أظلم الكثير من الرجال بتشبيهي هذا .
تلاقت عيونهما اثناء دخولهما المصعد فأحمرت وجنتاها خجلاً و طأطأت رأسها بينما هو أشاح بوجهه ووقف في المصعد بعيداً عنها ،استند برأسه الي الحائط ،حاولت أن تختلس النظرات اليه فتفرست ملامح وجهه التي شعرت و كأنها تعرفها جيداً أو انها التقت به من قبل،كان يعلم أنها تنظر له لكنه كان يدعي عكس ذالك،بعد تأمل دام بضع دقائق في وجهه ،اتسعت عيناها فجأة وقالت في نفسها ..
سمير ..؟؟
التفت لها وإبتسم وقال في صوت عميق: السيد سمير بعد إذنك ..
انزعجت كثيرا من أسلوبه المتكبر و المغرور،أليس هذا سمير مهران زميل الجامعة

الذي كان معها،ربما أخطأت في الشك،علي اي حال ليس أسلوب جيد لبداية حديث مع امرأة ،لكن كيف سمعها ! لقد تغير كثيراً شكله ،تتذكر أيام الجامعة حين كان سميناً ويرتدي نظارات و لا يجلس مع أحد،يقضي معظم وقته في المكتبة،وقد تقدمت هي خطوة لكي تتعرف عليه بعكس جميع الطالبات اللواتي التفتن الي الشبان الوسيمين ،لكن لم يتغير دهائه بداخلها..

التفت لها وأبتسم أبتسامة هادئة لم تفهم معناها،دنو منها أكثر وهمس في أذنها : السيد سمير..السيد سمير مهراان .

أجحظت عيناها و ضحكت عالية مندهشة مما تراه امامها،فلم تجد من الكلمات ما يعبر عن شكرها لله للقائها بأعز أصدقائها إن لم يكن الوحيد،أختفي سمير منذ عشر سنوات ولم يظهر،كان بينهم في البداية بعض الرسائل و المحادثات القصيرة وبدأت مع الوقت تقل حتي اختفت تماما ،كانت تعلم أن من تراه أمامها رأته من قبل و كأن بينهم شيء ما قديم مازال بداخلها مهما تراكم عليه الغبار..

قالت بنبرة عالية :

- أين أنت منذ زمن،حقاً أشتقت لك ..

- أخذت منحة الي الولايات المتحدة ودرست هنالك عدة سنوات ،عملت بالتدريس في إحدي الجامعات ،وها أنا هنا اقف أمامك ..أشتقتُ لكِ .

ضحكت مجاملة فاستطردت: ما زلت مجاملاً كما أنت،لكن يتضح أن الغربة قد أثرت فيك كثيرا ..

- أري أن الفصحي خيرٌ من العامية الغير منضبطة،تعلمين الإنجليزية وتأثيرها علي الكلام ..

ضحكت لطريقة كلامه فاستطرد :

- أقطن هنا في الدور السادس،وأنتِ ...

- كنت أزور أحد الأصدقاء هنا، أحدهم..أعرفه منذ زمن..

- بارك الله لكِ..

- لا لا ليس كما تظن فقط مخطوبان لا أكثر..

- من تخدعين! أنا أم أنتِ ،تعيشين مع رجل في مقتبل الثلاثين لا يفعل شيء سوي اللهو بك،وأنتِ علي أمل أن يأتي في يوم ويتزوجك،لم أكن أعلم انكِ بهذا القدر من الطيبة .. -قالها ساخراً-
أزدادت غضباً وأحمرت عيناها كجمرات مشتعلة ،لم لا يكلمها عن حالها أو ماذا تعمل الأن وما دخله في تلك الأمور، قالت في حدة :ولم لم تقل أنه يحبني و يحافظ عليّ الي الأن..
التقط أنفاسه وقال: إذا كان حقاً يحبك لكان تزوجك،بينما أشكُ حقاً في أنه قد حافظ عليكِ ..
رغم حدة اسلوبه ،كان لها كامل الحق في توبيخه و ربما أيضا صفعه علي وجهه وكسر فكه السفلي لكن،التزمت هدوئها لتظهر له أنها ليست خائفة وثابتة علي موقفها تجاهه ..لكنه استطاع ان يري ما بداخلها..ما لا تراه هي..حاولت إخفاء ذهولها وكيف له أن يعلم كل تلك الأمور !!
- وأنت ، ماذا تعرف عنه ؟!
- لا أعلم عنه،لكن أعلم أنك تعرضتي لمضايقات شديدة اليوم،ظللتي تراقبينه طيلة نومه كعادتك أيام الجامعة..أعلم أن كلامي يثير شيئاً من الريبة والخوف داخلك،لكن يعجبني ثباتك ومقاومتك للخوف،لكن أعلمي ان عيناكِ تشي بكل شيء..
لم تضف اي تعليق،الصمت سيد الموقف...كعادته يدهشها و كعادتها لم تنبس ببنت شفة ،تعرف أنه علي علم بكل ما ستقول،فلا جدوي من الكلام الأن،وصل المصعد و تقدمت خطواتها علي خطواته فناداها و دعاها الي القدوم عنده في يوم ما فلم تتردد لحظة في رفض الدعوة و بادرت ايضا بدعوته لتعرفه علي صادق ربما يثق قليلا أنه حقاً يحبها رغم علمها بأن حب صادق لها يقل رويداً رويداً،الي أن يتلاشي تماما كالرياح التي تأتي وتطيح ببعض الرمال في الهواء فتتناثر في كل مكان الي أن تختفي من أمامك لكن،ويحك أن تنقلب الرياح عليك فتتحول تلك الرمال الي عاصفة ترابية شديدة قد تلتهمك بداخلها ..
نهض من مقعده ودار في الغرفة بشكل دائري حتي أثار غضب الاخر الجالس

أمامه فصاح به ليجلس،خيم الصمت المكان فقطعه صوته قائلاً: طلبت منها مراراً أنك تتركني وترحل، لقد توقفت عن حبي لها منذ فترة وهي تعلم،لكنها لا تتوقف عن تكذيب عقلها،أستغللت كونها ملكي، أستغللتها بأبشع الطرق-وأنت بالكاد تفهم قصدي تماماً – لكنها أمرأة ذات صمود لم يوجد يوماً لدي جيش تقهقرت صفوفه وما زال صامداً،تنفس الصعداء واستطرد :لقد تعبتُ...

* * *

شيء ما بداخلها،مزيج من الإضطراب المصحوب ببعض الملل،أصبح عقلها كصفحات الورق البيضاء لا يمكنها ملؤه بكلمة واحدة،الحياة تصل بها الي أقصي درجات الملل،يشغل التفكير حيز كبير في عقلها تناقضات كثيرة ما بين التصديق و الكذب ما بين الحقيقة و الوهم،ليس أمامها سوا خياران،تغادر وتترك كل شيء خلفها تلك الأشهر القليلة التي قلبت موازين حياتها،المشاعر التي لا تريد الهدوء،حب حياتها الأول..كل ذالك،مقابل أن تحاول أن تبدأ علاقة جديدة مع شخص جديد،لكن من يعلم ربما لا تكتمل كالنهاية..علاقة تليها علاقة لا تريد تمزيق قلبها الي كعكة وليأخذ كل واحد قطعة،رغم الامها والوجع الذي أجتاح ارجائها،الا أن هناك لذة ما في تلك المعاناة،المهم أنها لأجل أحدهم تهتم لأمره،تتذكر حين سألها أحد الأصدقاء لماذا نضحي..شردت قليلآ وقالت:يفترض أن يجد كلٌ منا شيء يضحي ويموت لأجله ،لقد وجدته بالفعل .
الخيار الثاني أن تظل متمسكة به وبتعذيبه لها سواء عن قصد او بدون،لكنها تفضل البقاء معه علي أن يطاردها في أحلامها كل ليلة..
هل يصبح ذالك النعيم الذي دام عليها أربعة أشهر جحيما دون مقدمات ..
هل تصبح في يوم وليلة معلقة بأحدهم رغم تحفظها الشديد علي الحب؟!! ..
فقط لندع تلك الأمور تسري مسراها...لندع القدر عزيزتي يري ما سيفعل بتلك القلوب التي باتت لا تدري ما يجمعها ...

* * *

تلك الليلة أرتدت أجمل ما لديها من ملابس وتزينت ووضعت عطرها الباهظ الثمن الذي تصرخ رائحته (بماركته) الشهيرة،أغلقت الباب وراءها وأتجهت الي

شقته بالدور السادس وبينما هي في المصعد فكرت في الذهاب و اصطحاب صادق معها ليلتقي به لكن تذكرت أنه لم يتلق أية دعوة وسيسبب هذا له حرج شديد فتراجعت فوراً عن تلك الفكرة ،ما أن وصلت حتي وقفت أمام باب شقته وضغطت علي زر الجرس و أنتظرت عدة دقائق حتي بدأت تنزعج ولم يفتح لها أحد بعد،ظنت أنه قد نسي موعده معها لكن بعد فترة وجيزة فتح لها الباب وبدأ في الأعتزار لها بشدة بسبب عدم سماعه لطرقها الباب ثم طلب منها الدخول تقدمت في هدوء ،التهمت تفاصيل الغرفة بعينيها فالأثاث منظم بدقة يكسوه اللون البني ويبدو أنه أثاث عتيق من العصور الوسطي ربما ،لكن بحالة جيدة ،الستائر السوداء تزين الشرفة الوحيدة في الغرفة المطلة علي النيل الذي يبعث بنسماته الرقيقة عليها،جذب أنتباهها المكتبة الموجودة بالزاوية و التي ضمت مجموعة من الكتب القديمة البالية و التي بحالة يرثي لها وعندما سألته عن سبب حالتها أخبرها بأن لديه هواية تجميع الكتب القديمة البالية أستمرت في السير حتي طلب منها الجلوس،حينها جذب أنتباهه تنورتها السوداء القصيرة والتي تعطي دوراً أكبر لأظهار قدميها البيضاء التي تثير كل من يقع عينه عليها ،حاول غض بصره ولم يلتفت لها ،سألها اذا ارادت شرابا ولكنها رفضت و أخبرته أنها لا تشتهي الخمر ف أمسك كأسه وصب به بعض النبيذ ثم تجرع قليلا منه و تركه علي المنضدة وعاد لها ثانياً ساد صمت بينهما فأرادت بدأ حديث معه لكن لم تكن تدري في أي شيء تتحدث فقطعت صمتهما قائلة كذباً :-رائعة تلك الستائر، كانت دائما امي تخبرني، أنسب لون ستائر هو الأسود ،يعطي طابع مختلف للمنزل-

ضحك بشدة فلم تكن كلمات مناسبة لبدء حديث مع رجل مثله في مقتبل الثلاثين ،لكنه فهم محاولتها تلك لبدء الحديث ،أخفضت رأسها خجلا وأحمر وجهها فطلب منها أن تمهله بضع دقائق وسيعود لها ،فاختفي داخل المنزل وعاد بعد ثوان قليلة ومعه ثلاث رجال من عازفي البيانو و الكمان جلسوا بعيداً عنهم ببضع مترات و بدأوا في عزف أحدي المعزوفات علي عود مارسيل كأمسية شعرية هادئة بيافا ،جلس القرفصاء علي الأرض وقال لها:ها..لماذا

الصمت؟ ،ضحكت في خجل ولم تعقب عليه،فاستطرد :أعتذر لأسلوبي الوقح بعض الشيء في المصعد لكن حقاً لا أرضي لكِ الذل بتلك الطريقة مع أحمق لا يدري قيمتك،تنفس الصعداء و أستطرد:نادية...أن كان لي نصف أخر فسيكون أنتِ،أنا بجوارك دائما وأبدا ..

أخذت تطيل النظر في صمت ،وضعت رأسها بين يديها تفكر،رغم أن الأمر قد أسعدها، لكن خافت أن ينشب بينهم حرب لأجلها ،لكن في النهاية وافقت مستسلمة لأمر الله ...

اقتربت منه ببطء ..

-هل يمكنني ان امسك يدك ، فقط لأطمئنك - قالتها بصوت هادئ وخجول ..

- لم تستأذنين امرا كهذا !! بالطبع يمكنك ... يد ،قدم انا لكِ - ...

امسكت يده بلطف ورتبت عليها .. كانت دائمة الشعور بالوحدة مازال امساك ايدي الاخرين يشعرها ببعض من الامان و الراحة ..

- هكذا افضل ؟!! -

- نعم افضل بكثير - قالها وابتسم .

استطرد : اذن .. ماذا تعملين الان ؟ -

- لاشيء ، اعمل كمعلمة في روضة اطفال -

-جيد ،المكوث مطولا مع الصغار امراً يريح النفس ، اتعلمين ذالك ؟! -

- لا لم اكن اعلم ، شكراً لك -

-العفو ،هذا عمل رائع - قالها بابتسامة خفيفة

جلست معه بتبادلان الحديث حتي منتصف الليل فشعرت بالنعاس وأستأذنته في الرحيل،أتفقت معه علي أن تقابله هو وصادق غداً الخامسة في نفس المطعم الذي يجلسان به دائما،لم تنم طيلة الليل وانشغلت بالتفكير به وبملامح وجهه وأقتضاب حاجبيه حينما يغضب،لا بد و أنها وقعت في حُب جديد ..

* * *

ظللت طيلة الليل أجلس وحدي أدخن السجائر وأشاهد المارة تقل وتزداد أعدادهم من حين لأخر لا أعلم لما نادية معي حتي الأن،في كل مرة تقتحم

حياتي ضاربة بي عرض الحائط،أجدني أخبرها بأن دورها قد أنتهي لكنها تعود بكل قوتها وتقول: -سنعيش معاً ونموت معاً- ؛ تحيرني قدرتها الخارقة علي الصعود من الأعماق كلما دفنتها في الأسفل ،أتمني لها أن تجد لي بديل يشغِلُها عني تلك الفترة حتي تتناسي أمري،هي تعلم وأنا اعلم أن القدر لا يريدنا سوياً،لكن مع ذالك ترانا دائما في مخليتها أقف بجوارها مرتديا زي السهرات الأسود وهي بالفستان الأبيض بجواري تبتسم لي وتقبلني أمام الجميع لتخبرهم كم كانت علي حق عندما أصرت علي أنني رجلٌ شريف و سيتزوجها ويصنع معها عائلة صغيرة تستيقظ يومياً في السابعة تبتسم في نشاط وتذهب للعمل وتعود بأجر يكفي لحياة سعيدة،لم تكن تعلم حين وقفت معي مقابل الجميع ،أنني سأخذلها رغم قولي لها مراراً -أنا نذل كبير لا أصلح سوي لكتابة فلسفات أطلق عليها أسم روايات وفي النهاية تظل مختبئة لا يصل لها ضوء النهار ،لكنها كانت ترد قائلة :

-مهما وضعوا السجين في الأسفل فدائما يصل له بصيص من الضوء -
في قلبها وطن و في قلبي منفي ..

أخرجت ورقة وقلم من جواري و كتبت لها بعض من الأشعار : لا تقلقي يا حُلوة الحُلوات..مادُمتِ في شِعري،وفي كَلماتي...قد تكبرين مع السنين،وإنما لن تكبري أبداً..علي صفحاتي ..

ربما تطمئنها تلك الكلمات غدا أو تلئم بعضاً من جروحها ..

* * *

صاح به الاخر: -أين تذهب ؟! -
فقال صادق في مرح : - سأرحل أينما ارحل ، المهم ان اري الضوء .-
- هل تناسيت ان لا احد يعرفك غيري هنا ؟!! -
-لا يمكن ان تنسي المها الاكبر .. انا واثق .-

قالها والدموع تترقرق في عينيه،صمت كلاهما لحظات ونهض الأخر من مقعده ثم دفعه بقوة الي الأريكة : -لا لا لن ترحل ، ما زلت مريض ، انت بحاجة اليّ..-
نهض صادق ودفعه فاصطدم بالطاولة وسقط معه كل شيء فوقها ،أمسك

بالزجاج المكسور بجانبه وأخذ قطعه منه والقاها علي صادق لم تصب سوي قدمه اليسري فصرخ من شدة الألم حتي كادت أحباله الصوتية تتقطع،جعلت من حركته أكثر صعوبة ،تحرك حركة غير مستقرة حتي وصل الي الجانب الاخر من الغرفة أخذ عصاه الخشبي المعلقة علي الحائط و هوي بها علي رأسه عدة مرات حتي سالت منها الدماء وأصبح يسبح في دمائه الملوثة،شعر صادق حينها بدوار شديد في رأسه ومن ثم بدأ يفقد وعيه ببطء وهوي كالجثة الهامدة بلا حراك ،غاصت دمائه في السجاد الثمين وضوء الشمس لا يصل منه الا خيوط رفيعه فتظهر عينيه البنية و هي نصف مغلقة وتبدأ بشرته بالشحوب تدريجياً والعرق يتصبب من جبينه ،تتوقف الدماء تدريجياً عن التدفق و السريان في عروقه ، تتهدج انفاسه ثم تتوقف... الي الان.

قال أحدهم قديماً: -إن أخطر الصراعات البشرية هي صراع الانسان مع النفس- . . .

لم تستيقظ نادية علي صوت زقزقة العصافير او صرير الرياح و نسمات البحر الهادئة،أنما استيقظت علي صوت بائع الخضار أسفل منزلها بالحُسين..تعيش وسط مجموعة من الرجال حين يقعون في مشكلة فأنها تتجلي في حيز : هل يحضر الجبن أم الفاكهة الي المنزل اليوم وفي النهاية يحضر الفاكهة خاضعاً لغريزته الملحة ، سنظل نريد أشباع غرائزنا كبشر بأي وسيلة حتي في الطعام ..
نهضت من سريرها وسارت مترنحة نحو الرواق المؤدي الي الحمام ،سكبت بعض المياه في يدها وارتشفت القليل وبثقتها في الحوض ،نظرت الي المرآة أمامها تأملت تلك المرأة العجوز التي تبدو وكأنها في الاربعين،السواد الذي يغطي أسفل عينيها وشعرها الذي يتساقط يوما تلو الأخر..
أرتدت ملابسها سريعاً ولم تتناول فطورها ،أتجهت الي سيارتها نحو منزل صادق.
حينما وصلت كان باب الشقة مفتوحاً لكنها لم تتعجب فإنها عادة صادق ربما عاد من الخارج سكيراً ،دخلت فوجدت المكان مرتب و كل شيء في مكانه وهذا ما كان علي غير عادته تقدمت نحو الرواق المؤدي للغرفة ففتحتها ووجدتها مرتبة ونظيفة ،التهمت الغرفة بعينيها وبحثت في أرجائها،فجذب أنتباها ظرف علي الطاولة،توجهت نحوه مسرعة ومزقته وأخرجت الورقة بداخله وشرعت في قرأتها :
-لا تقلقي يا حُلوة..مادُمتِ في شِعري،وفي كَلماتي...قد تكبرين مع السنين،وإنما لن تكبري أبداً..علي صفحاتي -
امتزج الشعور بالحيرة بالخوف مع القليل من القلق ،يبدو ان ما كانت تتوقعه قد حدث ،هرب وتركها وحيدة ،ومنذ متي لم تكن هي وحيدة ،استندت بجسدها علي الطاولة و جلست علي الارض ،وضعت وجهها في كفيها وانهالت في البكاء ،لم تصدر انينا مسموعاً ،كانت تتمزق من الداخل ... في صمت ،غلبها

النوم في مكانها ،وما زالت اثار الموت علي وجهها .

* * *

- سمير-

جلست طيلة اليوم بجوارها لم تستيقظ قط، كانت حرارتها ترفتع في آن فأحضر لها كمادات الثلج و في آن أخر تعتدل ،بدأت تفتح عيونها السوداء في الليل لم أكن منتبها لها بقدر كافٍ فقامت مفزوعة وشهقت عالية فأيقظتني ،نظرت لها بعين نصف مغلقة وإبتسمت بينما الفزع يتجلي في وجهها،حاولت التهدئة من هلعها لكنها لم تنطق سوي بكلمة واحدة

-صادق .. رحل -

قمت ثائرا وصحت فيها ..

-هذا النذل الحقير،ما زلتِ تسألين عنه،الا يكفي ذلا،أم أنك أعتدتيه .

أدركت كم كنت غبيا متسرعا في كلامي،حاولت إصلاح خطأي فجذبتها ناحيتي واحتضنتها مربتا علي ظهرها فدفعتني بقوة وكأنها تريد لكمي الأن،لقد زدت الطين بلة،أسرعت وشققت طريقي نحو الخارج وتركها وحيدة

قامت من مكانها وخرجت ورائي لكن لم تكن لتلحق ،بل توجهت نحو باب الشقة لترحل،ناديتها بهدوء ..

-خلف الورقة..-

لم تنتبه لكلامي فرفعت من صوتي و صحت بها ..

-خلف الورقة..أنظري خلف الورقة. -

أنتبهت تلك المرة لي فالتفتت ونظرت بتعجب ثم تناولت مني الورقة و قرأت ما كتب في ظهرها...يبدو أن هناك كلمات مكتوبة بخط دقيق بالخلف لم تلحظها حين كانت تقرأ ،كان مدونا : - عائدا الي الاسفل -

راحت تسير في الغرفة ذهاباً و إياباً تقلب الأمور في رأسها ،فجأة توقفت وكأن شيئا ما قد ورد لتوه في رأسها

-مفهوم...الأسفل ... لا بد وأنه يشير الي بلدة ما في الجنوب ،أتعلم شيئا .. لطالما حدثني صادق عن مدي رغبته في زيارة -أسوان - وكم يود الانتقال والعيش

هناك ،لا بد وانه يشير لها ، لكن لما يهرب تاركاً وراءه دليل -
اجبتها :
-هذا ما سنعرفه ان ذهبنا -
إتسعت حدقة عيناها ونظرت لي وقالت ..
-سأذهب الان-
هززت كتفي في إستسلام فهذا قرارها،وليس لي الحق في التدخل ،فلتفعل ما تشاء،لم تبالي لي و غادرت سريعا لكنها عادت بعد ثوان،ونظرت في خيبة أمل وتدلت شفتاها كالأطفال ..
- قطار اسوان .. متي ؟!-
- غدا في السابعة...سأسمح لك بالبقاء عندي الليلة..الليلة فقط.-
نظرت لي في خجل وأومأت برأسها ،دخلت و أغلقت الباب ورائها وجلست أمامي دون التفوه بحرف،كعادتها تركت لي مهمة قطع الصمت الذي يخيم أرجاء المكان.
كان يبدو عليها التعب والإعياء الشديدان،فقمت بحملها الي الداخل،داخل غرفتي وضعتها علي سريري وتركتها كنجمٌ فقد وهجه لتوه ،أبت تماما أن تأكل وأن تري أية طعام،نمت أنا في غرفة المعيشة رغم قساوة النوم علي الأريكة وشعوري بالإنحناء والتقوس في ظهري وفقراتي التي كانت تصرخ من شدة الألم ،الا وان كل هذا يهون لأجل صغيرتي (نادية) هي الأن بحاجة اليّ أكثر من أي وقت مضي ولأنني صديقها الوحيد ..صديق!! ..كلما تذكرت أنني مجرد صديق بالنسبة لها كلما جعل هذا الضيق يزداد في صدري وجعلني أشعر بإختناق وغضب تجاهها ،لكن في النهاية لا ذنب لها في حبها لصادق الحقير ...فالقلب وما يريد..

* * *

- نادية -
ارتميت في أحضان سمير لم أشعر حينها سوي بيداه الكبيرتان تلتفان حول جسدي الصغير ومن ثم ...

أصبح كل شيء لونه أسود ولم أفق الا بعدها بخمس دقائق كان سمير يجلس بجواري محدقا بعيني بشكل مريب وكأنه يتفحص كل خلية بها ،حاولت التكلم ولكنني كنت عاجزة ...لساني مكبل !،عرض علي تناول الطعام لكني أشرت بسبابتي بالرفض وعدت ثانيا اغوص في نومي،لكن تلك المرة لم يكن سوادا كان كل ما حولي أصفر اللون،أصفر فاقع يجعلك تتحاشي النظر اليه حتي لا تؤذي نظرك،كان كل ما حولي صحراء جرداء لا ماء بها ولا عشب،الحرارة مرتفعة حتي أنني أكاد أشعر بسخونة الرمال تحت قدماي العاريتان،قفزت عدة مرات بسبب الرمال الملتهبة،حاولت الركض لكن دون جدوي،أقطع مسافات طويلة وكأنني أدور في مسار دائري لا بداية له ولا نهاية،الحر يزداد مرة بعد مرة وبدأت أشعر بالدوار،لاحظت سرابا ازرق اللون من بعيد،تقدمت نحوه اعدو حتي وصلت،كان شلال مياه عالٍ جدا ،و المياه تنهمر من أعلي وترتطم بالصخور فتُحي صوتا عذبا بداخلي،اردت تجرع بعض المياه فدنوت الي النهر امد يدي واحمل القليل واشربه،شعرت بخطوات اقدام قادمة من خلفي ،بدأت بالأقتراب أكثر فأكثر حتي صارت ورائي مباشرة ،التفت له ببطء و تفحصته من أسفل الي أعلي ..

أنه صادق !! صادق!!

لكن بشعر طويل وجسد نحيل ولحية كثيفة يملؤها الغبار نهضت من موضعي اتفرس في وجهه وعلامات القلق والتعجب تتجلي من وجهي ،فإذا به يبتسم لي قائلا : -ما بين الحقيقة ..وما نراه -

ودفع بي بكلتا يديه فأنعدم توازني وسقطت من أعلي النهر دون أن افهم ما معني تلك الكلمات التي قالها لي الأن..

نهضت مفزوعة من مكاني وشهقت بصوت عالي،لكن سمير كان كالقتيل بالخارج لم يسمعني ..

شعرت بالبلل الذي يسري بداخلي وقطرات العرق التي تسري علي جبيني والسخونة التي تحيط بي..

أشعر بدوار ..

أختنق ..
الهواء يقل ..
كل شيء يصبح أسود اللون ..
أنقطعت انفاسي ..
و... لا شيء.

* * *

نهضت من فراشي ،تناولت منديلا من جانبي كي أمسح العرق المتصبب من جبيني،كلا...بل من كل
ثغرة في جسدي كانت تتصبب عرقا ..
لا أذكر الكثير مما رأيت سوي كلمات صادق لي و التي كانت تتردد في مسامعي دون توقف،تذكرت سمير الملقي علي الأريكة بالخارج،شعرت بالضيق لأجله و لأنني تركته يبيت في منزله علي أريكة مؤلمة كتلك،سرعان ما توجهت الي الخارج لم أكد أخطو بقدمي عتبة باب الغرفة الي و قد أصطدمت به علي الباب يحمل بيده صينة بها فطور فخم و كأنني في أحد الفنادق المجهزة،صمت لبرهة وقلت :- صادق، لما كل هذا،لم اكن بحاجة له .-
لم ينبس بكلمة ،فلاحظت الضيق الذي اعتلي وجهه والصمت الذي خيم المكان،فأنتبهت بنعتي له بصادق ،الهذا الحد يشغل صادق حيز من تفكيري يجعلني أنادي الجميع بأسمه،يا إلهي ! بادرت فورا بالاعتذار له و شرح الأمر لكنه قام بدفعي بكتفه و القي بالصينية علي المنضدة ،كاد محتواها يسقط ارضا و غادر دون التفوه بكلمة،شعرت بالضيق و الخزي مما فعلت ،ماذا عساي افعل الأن انا بلا أهل ،بلا صادق ..بلا أخر آمالي في تلك الحياة.. سمير !!
تبعته الي الخارج بعد لحظات،وقفت خلفه تماما ملتسقة به،كان ضخما كالجبل مقارنة بجسدي الصغير،وضعت يدي علي كتفه و قلت :
- أتعلم ...يفصل بيني و بين السعادة الأن بضع سنتيمترات. -
- لا..يفصل بينك و بين السعادة الآف الكيلومترات،بينك وبين صادق..غدا سأوصلك وتنقطع صلتي بك الي هذا الحد..عند مفترق الطرق . -

تقدمته بخطوتان ثم جذبت يده ورتبت عليها،أجلسته بجواري وقلت :
- حسنا ، اشعر حقا بالخزي منك ، لا اريد اتعابك معي ، سارحل وحدي ،انا امرأة راشدة لست بحاجة لرفيق او وليٌ.. اتفقنا ! -
استطردت :- لكن تذكر انت الان تنقض عهدك من جديد -

* * *

-سمير-
أنقض عهودي!! .. من منا الآن ينقض عهده مع الأخر،من تركني وذهب الي ذالك الداعر صادق،رغم أنه لا يزيد عني شيء ،حتما أنني أكثر جاذبية ووسامة من ذالك البدين الكهل..
رمقتها بنظرة غضب حتي كادت عيناي تشتعل كجمرتين و تخترق حرارتهما وجهها،إزداد حنقي وغضبي واحمر وجهي وزادت حرارتي وكأننا علي خط الإستواء،أشحت بوجهي بعيدا عنها،بينما أقتربت هي مني أكثر و احاطتني بذراعيها،حينها تبدل الوضع الي القارة الجنوبية وشعرت بجبل ثلجي يسقط فوق رأسي،لكن قاومتها ودفعتها بعيدا،وضعت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء،ثم رفعت رأسها وقالت:لو كان بيدي حيلة،لمحيت صادق هذا من علي وجه الكون ،لكنه كالدماء تسير في عروقي..فإذا تخلصت منه..بادر هو بالقضاء علي.
- اذاً فلينتهي كل شيء الان .

في مكان ما،غير معلوم. . لا يعرفه أحد. . سواهما . . فقط . .

أعتدل في جلسته،شبك اصابعه مع بعضها البعض،ازدرد ريقه ،كانت أنفاسه متهدجة فقال :
-أعلم أنك لم تعد تصرخ مثل السابق وهذا جيد..لكن أستطيع رؤية أنك ما زلت متمسكاً بي،نحن بحاجة للعمل علي غضبك،أنت غاضب علي الجميع ...جميع من حولك . -
-اللعنة علي الجميع ..-
-أعلم أن لديك الكثير لتغضب بشأنه ولكن الإحتفاظ به لنفسك والبقاء صامت مثلما تفعل لن يساعدك،هناك ما بداخلك حيث عملنا يحتاج الذهاب ،ماذا بشأن الذين خيبوا ظنك فيهم او الذين خيبت ظنهم فيك ..-
-لا لا شيء.. ربما لأن كل من كان حولي رحل دون ان يردف ببعض الكلمات،بالرغم من انه لم يكن معي احد منذ البداية ، نادية التي مللت إياها و ما زالت تتمسك بي رغم كل شيء.. دعك من هذا الهراء ، فأنا حتي لا أعلم من أنت . -
-صادق .. أنت لا تنطق بأي شيء ،ما الخطب ؟ -
-لا شيء..لا تحبط ، أنا -وأنت أيا كان- نختلف عن الأغلبية .. علي الأقل نتشابه .. -

***

نظر لهم من أسفل عدسات نظارته مخاطباً إياهم و بصوت يملأه الإحباط ..
-أعلم أن كثيراً منكم تشغله الكثير من الأسئلة ،البعض الأخر ربما قد مل من أسلوبي الغامض بعض شيء أو ربما بعضكم يجد متعة ما فيه ، علي أي حال اعدكم بأن أزيح الستار علي تلك الأمور الغامضة و سنعلم ما يخبأه لنا كل شيء ، لا أريدكم أن تتعجلوا أو تصابوا بالإحباط .. ستعلمون كل شيء في الوقت المناسب .. خيرا لكم ان يحجب عنكم جزءا من الحقيقة حتي لا تتألموا.

و كُلما أمسكت بحالة مِن حالاتي و قلت هذا هُو أنا . . ما تلبث هذه الحالة أن تفلت من أصابعي و تحل محلها حالة أخرى . . هي أنا أيضاً. . -!

د/مصطفي محمود . .

جلس في أحد المقاعد الأربعة المتراصة بجانب بعضها البعض كل أثنان يجلسان بوجه إثنان أخران يتبادلان اطراف الحديث أو بعض النكات الساذجة لكنهم يضحكون مجاملة ، وربما تجد إحدي الوجوه العابسة أمامك بلا مبرر ،أما هو كان يجلس بجانب النافذة مستنداً بإحد اذرعه اليها ينظر الي الطبيعة القاسية وزجاج العربة المتسخ يحجب عنه نصف الرؤية ، الطبيعة التي احضرته الي هنا وربما لم يكن ينظر لشيء محدد ، كل ما يشغل باله هو نفسه فقط وصديقه الجالس بجواره صامتا لم ينبس ببنت شفة منذ جلوسهما ، بدأ القطار يتحرك رويدا رويدا .. نظر لمن حوله أنها السابعة صباحاً إثنا عشر ساعة ستمر مرور الكرام ولن يشعر بملل و لن يشتاق الي نادية ، مر عجوز بجانبه يبدو أنه في السبعين من عمره وقف لحظات رامقاً صادق أملا أن ينهض ويترك له مكاناً لكن صادق بادله نفس تلك النظرات في تعجب مقعد لصادق وصديقه و رجل و زوجته أمامها ،أمن فرط عجزه لم يعد يري !

قال صادق متعجبا :

-الي ماذا تنظر ،أتري ورودا تنبت في وجهي ، أأقطف لك إحداها ! -

رد الرجل بلهجة حادة :

- الا تري أنت كهل في السبعين يقف منتظرا منك أن تسمح له بالجلوس بجوارك ؟ -

- أين جواري هذا ، هنا يجلس صديقي .. -

-أي صديق هذا ؟! لا أري أحدا سوي حقيبة بجوارك -

انفجر صادق ضاحكا وتابع وعيناه دامعتان :

-عجوز مخبول في منتصف السبعين !! هيا يا رجل من هنا ليس عندي وقت للمزاح الأن .. -

---

ضرب الرجل كفاه ببعضهما متعجباً لما يري و غادر بهدوء بينما أعين الجميع تلتهم صادق بنظراتها متعجبين هم الأخرين له ، صاح بهم صادق أن يلتفتوا الي أنفسهم والا أنه سيؤذي أحدهم اليوم ..
عاد الي حالة الركود السابقة ،تلك المرة نام في سبات عميق و لم يدرِ ما يدور حوله قط حتي ضجيج حديثهم لم يتخلل الي اذنه ..

* * *

حزموا حقائبهم استعداداً لبدأ المغامرة ،لم تأخذ نادية سوي حقيبة ظهر واحدة كذالك سمير،اثنا عشر ساعا إياباً وأخري ذهاباً ولن يدوم الأمر سرعان ما تحضر صادق معها وهنا ينتهي كل شيء ،وصلا الي محطة القطار متأخرين قليلا بسبب اصرار سمير احضار بعض الأطعمة معهم ،استقلوا القطار في النهاية وبدأ يتحرك ..لم ينظر كل منهما الي الأخر فقط كانت نادية تختلس النظر لسمير الذي لا يعيرها اي اهتمام منذ ركوبهما سوياً وكأنها لا تجلس أو انه في ملكوت أخر ..
ربما هي حالة عامة تصيب الجميع أثناء ركوب القطارات، علي أي حال.. دام هذا الصمت ثلاث ساعات الي أن شعُر سمير أخيرا بجفاف حلقه و قام ليحضر بعض المياه ثم عاد في خلال دقائق قليلة ،نظر الي نادية متاملا إياها وكأنه يريد أن يتفوه بشيء لكن لسانه معقود ..
- نادية ..-
- أجل !-
- أريد مخاطبتك في شيء ما .. -
-انا ايضا لكن ،أبدأ انت اولاً .. -
-عفواً ،السيدات أولا ..-
-حسناً،كنت أريد الحديث معك بشأنك أنت وصادق،لا تتعجب من كلامي لكن ما القادم بعد أن انهي كل شيء مع صادق حينما أصل ..-
-تنهين كل شيء!- قالها في حماس
-نعم، يكفي وجودك بجانبي ،الله أعلم بما سيدور هناك .. دعنا ننتظر و نري ..-

* * *

المشهد كالسابق..
ما زال يستلقي في القطار علي إحدي المقاعد،أزعجت نومه بعض ذبابات إجتاحت وجهه بفضولية أن تتذوق القليل ،بات يشيح بوجهه بعيداً حتي شعُر بإختناق فسلم أمره و أستيقظ ،لم يتغير شيء منذ أن غفلت عيناه سوي شيئا واحداً أنتفض له جسده ،المقعد الشاغر بجواره لصديقه ذاك أصبح ممتلئ بذالك الكهل مرة أخري،بينما لا وجود لصديقه ،أتسعت عيناه في دهشة بينما صدره يزداد غلياناً ،أشاح بيده في أتجاه الرجل مخاطبا إياه بحده ليسأله اين هو صديقه الذي كان يجلس بجواره ،حاول العجوز التهدئة منه قليلا بينما هو ما زال يصرخ كالطفل الذي سرقت منه لعبته ،بعد عدة دقائق من محاولات التهدئة التي لا تجدي نفعاً ،هدئت ثورته في النهاية و جلس في مقعده يتحسر علي ما فقد ،يكلم نفسه كالمخبول ،أشار العجوز الي الجالسان أمامه بالمغادرة ،فأسرعا دون تفكير – من هذا الذي يجلس بجوار مخبول – علي اي حال ...
قرب العجوز رأسه من صادق و حدثه بصوت خفيض : لا أريد أن أخدعك و لا أريد حقاً أن أجرحك ،أو نعتك بالمخبول ،لكن صدقني ... لا وجود لصديقك هذا علي الإطلاق والا فالقطار بما به من ركاب هم المخبولون وأنت وحدك العاقل هنا .
نظر له صادق بإبتسامة بلهاء ولم يعقب ،فأستطرد :
- فلأعرفك بنفسي... صادق إبراهيم ، محافظة الجيزة ، جئت هنا لـ ... -
- أتعلم شيئاً أيها العجوز ، لم أطلب منك مخاطبتي ولا أن تعرفني بنفسك أو تخبرني بمقاس حذائك .. لا أهتم بأمرك علي الإطلاق ،فقط .. دعني وشأني . -
- ليست من صفاتي أن أتركك هنا وحدك تعبث بنوم الأخرين وتصرخ بين الفينة والأخري ،إن لم تصمت فسأصفعك علي وجهك وحينها لن تتكلم الا إذا طلبت منك ذالك .. أو ربما نتبادل أطراف حديث صغير ،يلهيك عن ما تفكر به الأن .. -
- وما يدريك بم أفكر ! -
- صديقك المفقود .. لا بأس أنا حقاً أشفق عليك -
حاول صادق كتمان ضيقه بداخل صدره ، مد يده للرجل مصافحاً إياه مع

إبتسامة عريضة ملأت وجهه .. فبادله الأخر نفس الإبتسامة ،أتفقا علي الا يزعج أي منهما الأخر حتي موعد الوصول .. لا حديث لا صراخ ، لا كلام عن صديقه .. فقط .. حتي موعد الوصول .

دنا من اذنه وهمس به :

-تأمل ..

تأمل ما حولك .. تأمل جيداً ... ماذا تري ؟!

مخلوقات ،بشر،جماد ... اثاث منزلك ! او مقاعد القطار الذي تستند برأسك علي أحد مقاعده .. كوب القهوة أمامك ! ماذا تري في كل هذا !!

لا شيء.. نعم أنها الأجابة المنشودة لكل هذا ..

لا شيء مما سبق يتساوي مع تلك الإبتسامة التي تحجبها عن ناظري ، أنت فقط ولا شيء سواك هنا ..

نم يا رفيق ..

لم يعقب علي كلماته،أطرق رأسه و عاد الي وضعيته السابقة في تفكير مبهم .. - ها هو صفير القطار يقطع نومي -وان كان نوما- معلنا عن نهاية تلك الرحلة التي لم تمر بتلك السرعة التي تصورها لك المشاهد ،بل كانت اكثر و اكثر من ذالك لكن أعلم انك لا تحب الثرثرة لذا سألتزم بالمختصر المفيد فقط ..

نهضت من موضعي ، اوقظت العجوز ،اتضح من كلامي معه مسبقا ان وجهتنا واحدة لذا نزلنا بنفس الفندق ، لكن دعني أحدثك قليلا عن ما رأيته أثناء نزولي لتلك المحطة ،رأيت روؤس سوداء كثيرة تعبر أمامي بسرعة، يمكنك أن تري بها القبح لكنها تحمل أكثر مما تري أعيننا القبيحة ، أنهم آية من الجمال لم تر مثلها قط،علي أي حال سرنا قليلا بين الأسواق و الحوانيت المتراصة بجانب بعضها البعض الممتلئة بالأطعمة بجانب المفروشات و الكثير و الكثير يتجادلون و يبيعون و يشترون ، عادة ما أكره الزحام لكن تلك متعة أخري وجدتها في تلك الأسواق لا أعلم ما هي لكنها تصل بي لنشوة ما ،حينها أوصلنا أحدهم الي فندق يبدو بحالة جيدة من الخارج ،مطلا علي النيل بمنظر خلاب لا تقدر كلماتي علي وصفه ،و لأنني لم يكن معي الكثير من المال أتفقت انا و العجوز أن نستأجر

غرفة واحدة لكلينا ،جميعكم يعلم ما هي أسوان و أنهم أهل كرم ، لكن لم تكد قدمي تخطو الفندق الا وقد رأيتها ،وكما سمعت أسمها من أحد العاملين يناديها -فاطمة- ،إبنة صاحب الفندق ،لذا تتجول هنا كثيرا و هذا ما يسعدني حقا ، سمراء البشرة و شعر مجدول للخلف و عينين سودوان مرسومتان بدقة ،لا أعلم لما حقا ننظر للقمر المنير الصغير و أمامنا السماء السوداء بأتساعها تكفي لاحتضاننا حتي نرتوي و نمل النظر لها ،لحظات واختفت من امامي ،لاحظت ان العجوز بادرني بالتحدث لعامل الاستقبال بالفندق بطريقة شديدة اللباقة :
-إذا سمحت لي ، لقد حجزنا غرفة هنا لكنني رجل مسن كما تري و لا تسعفني ذاكرتي لتزكر أسم صديقي الذي قام بالحجز لنا ، ايمكنك التكرم وأعطائنا غرفة ..-
إبتسم العامل و أشار لنا بالانتظار هنا قليلا ،تحدث بهاتفه بضع لحظات و عاد لنا بنفس الابتسامة المصطنعة
-يمكنك التوجه الي الطابق الثالث الجناح الشرقي المطل علي النيل ، تشرفنا بقدومك سيدي -
بينما أقف ناظرا له بعينان لا تفهمان شيئا ،سألته عن ما حدث ،أشار لي بالصمت بسبابته حتي نصعد سيشرح لي كل شيء..

* * *

تعبث نادية بأطراف أناملها بينما سمير غائص في اللاشيء ،بدأت تتحسس الورقة التي تركها لها صادق ،أسئلة كثيرة تدور في لبها و لا تجد لها أية أجابة حتي الأن ، تأملت سمير للحظات و قاطعت شروده ..
-سمير ..-
التفت لها في تساؤل فاستطردت :
-في خلدي تدور الكثير من الأسئلة بخصوص تلك الورقة التي تركها صادق ، تري لما يترك لي ورقة مكتوبٌ بها عنوانه ، لما قد هرب من البداية أساساً ! -
اجابها سمير في ملل قد بدا علي وجهه :
-لا أعلم ، حقاً لا أعلم .. لكن اتقولين أننا بعد ان قطعنا كل تلك المسافة أنه

كان يمزح معنا ، أم أنه مجرد تمويه ! ان كان كذالك فسأخرج عقله القابع بداخل رأسه و اقطعه الي قطع متفرقة في أنحاء البلاد .. بلا مزاح ، دعينا نري ما سيحدث فليس عندي ادني طاقة للتفكير بمثل تلك الأمور .. أخلدي للنوم يا نادية .. -

اومأت براسها ، التعابير التي ارتسمت علي وجهها تشي باحباطها من تلك الإجابة ، عادت لوضعيتها السابقة و أغمضت عينيها لعلها تستيقظ و تجد أن ذالك كان مجرد خدعة طريفة .

- بالمناسبة .. رأيت صادق في المرة الأخير -

- حقا ! كيف كان ؟!! -

- كان يحاول ان يكون بخير .. كانت خطواته سريعة ،رغم عدم وجود أحد ينتظره –سواك- كان يسبق القدر ليفوته كل شيء..-

اخذها الشوق فنظرت اليه بعين الخيال يملأ سماءها واذا هو بعيد بجسده... قريب بقلبه .

أأنت بخير ؟

نظرت الي الشرفة بجوارها بعين لامعة ..

أنا لست بخير تماماً ، لا اعرف من اين ابدأ لك ،وليس عندي مبرر واضح للحزن، او سبب مقنع لكي أحلق فرحاً،أقف في مفترق الطرق و العلاقات التي أكون أحد أطرافها ، لا أكمل ولا أتراجع ،أستلقي علي فراشي أنتظر رسائل من اشخاص لن يعودوا ..

أو ربما يعودوا ..

* * *

ها قد وصلنا أخيرا الي الغرفة ، غرفة من الطراز العربي القديم ،النقوش التي تزين كل ركن من اركانها موضوعة بيد فنان خبير ، فراش مريح و متسع كبير ،سجاد باهظ تغوص اقدامك به ، جلست علي أحد المقاعد بينما يرتب شيئا ما مع الخادم ، تأملت عيناي ارجاء الغرفة حتي انتهي هو ، الغريب في هذا المكان ليس الطراز الذي بني عليه ، لكن حقا ما سيدهشك أنه لا توجد هنا كهرباء

، الحياة البدائية علي ضوء القمر و النجوم و لا بأس ببعض النيران للتدفئة ، جلس السيد أمامي في صمت مبهم لم اعرف مغزاه ، عقد كلتا يديه معاً ثم قال في نبرة غير واضحة لم اكد أن اميزها فقد اقتحم الخادم مجلسنا للمرة الثانية
-هل أحضر لك أي شيء؟
-كوبان قهوة .. -
رحل الأخير و اغلق الباب ورائه فعدنا لذالك الصمت من جديد ..
- اذن ما الذي يأتي بشاب في مثل سنك الي هنا ، هل ارتكبت جريمة ما وتهرُب ! -
- علي الأرجح لا .. لم ارتكب جريمة ،انا فقط هجرت احداهن بدون علمها ،فأنا نذل كما تري ،لكن لا مانع عندي -
- ولما تركتها ، قبيحة ! -
- لا أيضاً ،ليست من اولوياتي الحب ،ولن اكن عادلاً معها هكذا ،كما تعلم فالأنثي الشرقية تضع الحب علي رأس كل شيء، فهو اكسير الحياة بالنسبة لها -
- جيد .. اخلد الي النوم ، ليلة سعيدة ..صادق-

***

لا أعلم كيف مرت تلك الليلة وكأنني لم أكن هنالك ، لكنها مرت مرور الشهب في السماء ،لم أشعر لحظة بالملل و أنا أقص حكايتي المملة علي هذا العجوز، ربما توقفت أحيانا عن الحديث و طلبت منه الا أتحدث عن هذا الأمر ، لكنه قال لي :
- يمكنك الكتابة ، قلت لي أن الكتابة تحسن من شعورك ..-
- أنها بالفعل تشعرني بالراحة ،لكن لا اريد أن يقرأها أحد -
- يمكنك أضرام النيران فيها أن اردت ..بعد الأنتهاء .-
نالت أعجابي تلك الفكرة، لكن ما كان يدور في خلدي حينها ، كانت نادية .. لا أريد حتي تذكر أسمها ، فلتذهب الي الجحيم هي و سمير هذا .
بادرت في الأمر في اليوم التالي ، الكتابة علي الورق تختلف تماماً عن الكتابة علي الحاسوب ، لكن كلما ازداد الامر صعوبة كلما زادت متعته ، بينما كنت منهمكاً

في الكتابة ، حضرت في ذهني بعض الاسئلة عن هذا العجوز ، اسئلة من النوع الذي لا يمكن تأجيله الي يوم أخر ، تركت ما في يدي و غادرت الغرفة ، أعلم انني سأجده بالاسفل كالمعتاد ، محق أنا كالعادة ..

كان يجلس القرفصاء امام عتبة المنزل محدقاً في الافق ،وضعت يدي علي كتفه فابتسم لي و دعاني لشرب الشاي معه لكنني كنت كالطفل الذي يلح كثيرا لمعرفة شيء ما ،بدأت الحديث معه عن امور متعلقة به و كأنه بدأ يستنبط ما اريد قوله فاشار لي بالتوقف عن الكلام وبدأ هو،قال انه رجل يبلغ السبعين من عمره ،ومع ذالك فأنه يتمتع بنشاط لشاب عشريني و عقل فلاسفة كبار ،مما زاد تعلقي به يوماً تلو الأخر ، لم يُرد أن يطلعني عن موطنه الاصلي أكتفي بقوله لي -أنا أحد الرحالة لذا موطني هو موطني- ،لم أفهم تلك العبارة الا فيما بعد ،عرفت ايضاً انه كان لديه زوجة و ثلاثة ابناء توفوا جميعهم منذ ثلاثة اعوام ،لكن ليس هذا حقا ما أريد ، أردت فهم لم أنا هنا ولِمَ ما زال يجلسني بجواره ،هو حتي لم يحاول معرفة شيء عني ، وكأنه يعلم كل شيء ٠

بعد حديثنا المطول هذا ،قال لي بنبرة حازمة :

-أحزم حقائبك فأمامنا رحلة طويلة -

-الي أين ؟! -

-بعض الأصدقاء سيسرهم التعرف اليك ..-

حسنا .. لم أعقب عليه ،ذهبت مباشرة الي الغرفة و حزمت بعض الاغراض ،لكن أتعلم ما الغريب في الأمر .. كلما أبتعدت عنه زادت حيرتي شيئا فشيئاً تجاهه ،هالة من الضوء تبعث بكثير من الشكوك تلتف حول هذا العجوز ،بدأت مؤخرا أشعر بالارتياب منه، أجده ليلاً يجلس في الوضع ذاته و ينظر للسماء وكأنه يخاطب احدهم ،لم يكن يناجي ربه ،بل كان يضحك بصوتٍ عالٍ ليلاً دون سبب واضح ،ولم يكن أيضا مخبولاً،هذه الحكمة لا تنبعث الا من العقلاء تراه وكأنك أمام أفلاطون بذاته ،أنها المرة الاولي التي انجذب فيها الي احد بهذه السرعة ، لن يكف عقلي عن التفكير الا اذا صوب أحدهم مسدسً في رأسي .

* * *

في الصباح قرابة الظهيرة ،تسللت أشعة الشمس الدافئة من بين ثقوب نافذة غرفته لتشكل بعض الخطوط الضوئية في الغرفة المعتمة ، بينما ذهب بعضها ليداعب وجهه الناعس ،فتح عينيه النصف مغمضتان و هو ينظر لساعته ، كانت الواحدة ظهرا ،جلس في سريره محاولا أستعادة صفو أفكاره لبضع دقائق، راح يتجول صادق حافي القدمين في غرفته قديمة الطراز، ثم أعد لنفسه كوبا من الحليب الساخن بالشوكولاه ،محاولا بالتالي التغلب علي نعاسه ،كان الجو بالخارج ربيعيا رغم صيف أغسطس القائظ، وضوء الشمس يتسلل عبر النافذة الناتئة متلألئاً علي السجادات الشرقية، جلس علي كرسي مكتبه ممسكا بالكوب الساخن مركزا بصره بداخله، لكن لم يكن حقا ما يشغله هو مذاق الشوكولاه الفاخر ، بل تلك الرحلة المعلن عنها بالأمس، أمور كثيرة تحدث تلك الأيام يشوبها الغموض،لطالما كان صادق فضوليا من الدرجة الأولي،فوجود أمر مماثل لا يعلم عنه سوي القليل يزيد من حدة ثورته .

قرع أحدهم الباب مرتين متتاليتين ،فسمح له صادق بالدخول ،تقدم الرجل بخطوات حذرة مطأطئا رأسه

- السيد بالخارج يبلغك بأن الرحلة ستقلع من هنا ليلا عند بزوغ القمر . - قالها الرجل بأحترام-

تحفز علي طرف كرسيه وضرب بكلتا يديه علي الطاولة كناية عن غضبه لما سمعه لتوه

- أي رحلة تلك التي تغادر في الليل ،هل سنتوجه لسرقة قرية ما أم سنقتل أحدهم؟!-

قالها في صرامة برزت في عينيه ..

راح الأخير يتجول في الغرفة ذهابا و أيابا حتي أشار للرجل بالمضي في طريقه.

أستمر في التجول داخل الغرفة حتي أحس بدوار فسحب كرسي من جانبه و استند عليه ، أمسك العجوز بيديه محاولا تهدئته

-لا عليك،لا تشغل ذهنك بأمور لن تفيدك لاحقا، أفرغه الأن .. ربما سنحتاجه بعد قليل.. - قالها العجوز بصوت هادئ مقربا شفتيه من أذن صادق

أستطرد: وبالمناسبة .. أصيب الرجل بحزن شديد لما تلقاه منك اليوم من صراخ في وجهه ، كن أكثر لطفا في المرة المقبلة.
أشار صادق بسبابته في وجه العجوز قائلا :
-أنظر يا هذا،لن أخطو خطوة واحدة من هنا حتي أعرف الي أين سنذهب و لما و كيف . -
-أتعلم .. أنت كثير السؤال، هذا لا يجدي نفعا معي ..لكن يتوجب عليك الأستماع لأمري فأنا مَنْ دفع لك تكاليف أقامتك الفاخرة ، حتي كوب الشوكولاه الفاخر هذا .. من مالي ! -
صمت قيلا ثم أستطرد:
-سأروي فضولك قليلا .. ألي اين سنذهب؟! : الي شمال الصحراء الغربية ، كيف؟! هذه مفاجأة الليلة.. بينما أختياري للظلام كان بسبب خوفي عليك أن تؤذي أشعة الشمس عينيك البنيتان ، أتمني أن تقضي نهارا سعيدا ، وتذكر .. لا تصرخ في وجه أحد ، فمثل تلك الأمور سيئة هنا.-

* * *

استمرت ملازمة الفتي الغرفة و خصيصا علي السرير طيلة اليوم، حتي أنه لم ينهض ليتناول وجباته الثلاث،بل اكتفي بالقهوة و الحليب الساخن اللاذان بدورهما يبقيانه دافئ ولا يفقد تركيزه،لا بد و أنه كان دائم التفكير طيلة اليوم فهناك عادة مشهورة عند صادق، إذا اصيب بالتفكير يقل منسوب طعامه او بالأحري يمتنع تماما عنه، يقول ان الطعام مجرد مضيعة للوقت وليس بالأهمية التي يعطيها له الناس ، -أنا آكل لكي أحيا لا أحيا لكي آكل- هكذا هي حياته .
الثالثة فجرا ..
ترجل صادق من علي سريره و أمسك بكلتا الحقيبتان بصرامة ثم توجه الي الأسفل بدون مكالمة أية أحد ،ألقا بكلتاهما في وجه الرجل و مكث بمفرده علي جانب الرصيف .لم ينبث الرجل ببنت شفة ،بدون رد فعل أمسكهما ووضعهما علي الناقتان، أجل ناقتان و هذا ما قد أثار أندهاش صادق في البداية سرعان ما تحول الي غضب ،لطالما أنه كان يعاني من فوبيا المرتفعات منذ كان صغيرا

، فالأمر ليس مجرد خوف لا مبرر له،بل هو مرتبط بحادثة والده الذي هوي من أعلي سطح المنزل أثناء اصلاحه لأحد اطباق القمر الصناعي مما أدي لنشوء تلك الفكرة بلبه عن خطورة المرتفعات أيا كان مدي تلك الخطورة و كيف يتراوح،أزداد الأمر صعوبة ،حيث أنه في البداية بقي علي قراره بعدم الركوب ، أستمر الحال لساعتان ، بذل فيه الجميع قصاري جهده ليجعله ينهض،حتي نهض أخيرا بسبب شعوره بالأحراج تجاه الجميع ،بالإضافة الي عدم أمتلاكه المال ليستأجر سيارة تقله لهناك ..بالكاد أيضا لا يعرف وجهته،ربما هذا ما دفع العجوز لعدم أخباره بشيء وإبقاء كل الأمور مبهمة .

وأخيرا أنطلقت الرحلة المكونة من ثلاثة جمال عليها صادق ، العجوز ، والمرشد .

أمسك صادق باللجام بشدة خوفا من أن يفقد توازنه و يهوي من فوقها ،ظل يحدث المرشد محاولةً منه من أن ينسي أمر الأرتفاع أو الناقة والتخفيف من حدة الأمر قليلا فبدأ بسؤاله عن نوع تلك الجمال و مدي روعة الطقس رغم برودته في الليل وعن النجوم الساطعة و النظريات حولها وأنها أيضا مثلها كمثل الشمس لكنها تبعد عن مجموعتنا الشمسية بألاف السنوات الضوئية ،المضحك في الأمر أن الرجل كان يهمهم لصادق دون أجابة ، فهذا راعي فقير كل ما قد شغل عقله طوال حياته هو رعيه و نعاجه ثم كم من المال سيجني ليجلب قوت يومه ، عندما لم يجد فائدة من الحديث مع المرشد أتجه في حديثه الي العجوز الذي أيضا يدوره كان يهمهم و لا يجيبه فشعر صادق بالأحراج الشديد حتي أن جسده المتجمد بات ساخنا وحارا ، فالتزم الصمت وغاص في نومه حتي وصلهما ،من حسن حظه أنه لم يسقط وهو نائم و ظل ثابتا بطريقة عجيبة أثارت ضحك العجوز.

* * *

ست وأربعون دقيقة مضت قبل أن يترجل صادق من علي ناقته والشك لا يزال يهيمن عليه، ويعاني من دوار طفيف.

وفيما كان يستمتع بروعة الهواء الطلق ،راح النسيم العليل يحدث حفيفا خفيفا في طيات سترته،بعدها نظر شزرا الي الواحة الخضراء الذي كانت تشوبها قطع

متفرقة من الأراضي المزروعة بالنخيل و الصبار و الكثير من النباتات الصحراوية.
فقال في نفسه : -لاشك في أنني أحلم وأنني سوف أستيقظ من حلمي هذا بين دقيقة و أخري - .
-أهلا بك في الواحات- صاح العجوز بصوت عال بسبب هدير الجمال المرتفع خلفهما .
عندها تحقق صادق من ساعته لقد كانت الساعة ٧:٠٧ صباحا .
-أننا لا نزال باكرا ،سيكون يوما حافلا بالمفاجآت - قالها العجوز مبتسما له .
فلاحت أمامهم في الأفق مجموعة صغيرة من الخيام،وكان الضباب في الخارج يلف السهول الخضراء الممتدة على جانبيهم.
-حسنا لا يزال هناك مسافة قصيرة سنجتازها عبورا بالسيارة- قالها المرشد لهم.
ركض بعض البدو مسرعين ناحيتهم يلوحون لهم من بعيد ،فرفع لهم صادق يده ملوحا هو الأخر، في حين أن المرشد رافق الرجلان الي سيارة دفع رباعي سوداء كانت تنتظره في موقف ،بعد ذالك بلحظات،أنطلقت السيارة بسرعة فائقة سالكة طريقا رمليا يمتد عبر قعر الوادي.كان صادق يكاد لا يصدق ما يري إذ أن السائق قدر رفع عداد سرعة السيارة الي ٢٠٠ كيلو مترا في الساعة -أي ما يوازي أكثر من ١٢٠ ميلا في الساعة، فراح يتساءل بينه و بين نفسه قائلا :-ما مشكلة هذا الرجل والسرعة؟-.
ثم أخبره المرشد : -بقي أمامنا ثلاث كيلو مترات ونصل الي الواحة ؛دقيقتان فقط-
لدي سماعه ذالك راح صادق ،أنما دون جدي يبحث عن حزام الأمان .
لم لا يجعلها ثلاث دقائق و يوصلنا الي هناك علي قيد الحياة؟
غير أن السيارة قد واصلت سباقها.
وبهدوء راح المرشد يسأل صادق وهو يضغط علي شريط موسيقي داخل المسجلة : -أتعجبك؟-
واذا بصوت ام كلثوم تغني - رجعوني عنيه ،لأيام اللي راحوا...-
فكر صادق بزهول تام قائلا: -لا مجال للتراجع هنا -

وفجأة ينتشله المرشد من حلم يقظته : -نحن أشبه بقرية صغيرة ،فالكل هنا يعرف بعضه البعض-
أومأ صادق برأسه، وراح ينظر من نافذته الي رقعة الأرض الفسيحة التي كانت تمتد أمام ناظريه ،والتي كانت تعج بالحوانيت الكثيرة و الضخمة ،أنه أشبه بمشهد محطة القطار بعض الشيء.
ثم أستطرد المرشد قائلا :
-هنا تمتلئ الحوانيت بأشهي أنواع الأطعمة و الملابس و كل ما قد تريد -
-حقا؟-
أجابه صادق و هو يمعن النظر بوجوه المارة و الصحراء المحيطة به.
فأجابه المرشد ضاحكا: -أجل سيدي، أنما لن نطعمك هنا لأن الجزء القادم هو الأفضل-
لم يكن لدي صادق الوقت الكافي لكي يستفسر حول هذا الموضوع، فما أن أنهي المرشد جملته تلك حتي كبح هذا الأخير السيارة فجأة وبقوة تامة موقفا إياها خارج منطقة سكنية صغيرة.
ترجل الجميع من السيارة و ساروا خلف المرشد فإذا به يتوقف لدي مجموعة من رعاة الغنم يحملون بندقية في يدهم و يسألهم ،فإذا به ينتابه شعور من الذعر و الرعب، وكأنه أدرك لتوه شيئاً ما .
-يا إلهي لم أجلب معي اية اوراق هوية !-
عندها أكد له السائق قائلا :-سيدي ،أنت لم تغادر البلاد بعد !-
راقب صادق ما يحدث أمامه في ذهول تام قدم السائق بطاقة هويته الي الراعي الذي بادر عند إذن بتمريرها لصديقه الجالس بجواره، ليتأكد من صحتها فإذا بالراعي يشير برأسه للسائق.
-أسم الراكب-
فأجبه السائق: -صادق-
-ومن هو الشخص الذي أتى لزيارته-
-الشيخ طه-

قوس الراعي حاجبيه لدي سماعه ذالك،ثم أستدار لصاحبه ليتحقق من أمر ما.
بعدها،عاد اليهم وقال :-أرجو أن تستمع بإقامتك عندنا،سيد صادق-
أنطلقت السيارة من جديد مجتازة مسافة ٢٠٠ ياردة أخري بأتجاه المدخل الرئيسي للواحة. هناك لاحت أمامهم خيمة كبيرة الحجم تختلف عن غيرها من الخيام المتراصة علي جانبيها ، تتمتع بقماش غير مرقع و أيضا مجلس فخم علي ما يبدو
أدهش صادق بالمنظر أمامه،فهو في الواقع لطالما كان مولعا بالبدو و ما يتعلق بهم في كتاباتهم .
جلس صادق مذهولا و مرتبكا بينما أدار السائق السيارة ليوقفها علي الجانب و يجعلهما يرتجلان ثم رحل بعدها تاركا إياهم.
نظر العجوز لصادق بإبتسامة عريضة أعتلت وجهه وأمسك بيده كالطفل الصغير و جذبه معه الي الأمام نحو تلك الخيمة الكبيرة .
توقفا قليلا أمام المدخل الذي يقف عليه أربعة حراس، ثم أشار لأحدهم ليدخلهم فطلب منه أن ينتظر هنا علي الأقل دقيقة واحدة ليعلم شيخ القبيلة بقدومهم .
-ألا يعلم أحد أننا علي مبيت هنا ؟!- قالها صادق و الدهشة تعتلي وجهه .
-بلى، أنهم علي علم من شيخ القبيلة الي الطفل الرضيع علي يد أمه ،لكن تلك القبيلة تتميز ببعض السرية و الحراسة المشددة منذ أخر حادثة لهم هنا .-
-أخر حادثة؟!- قالها صادق متسائلا .
-بالفعل،لقد تقدم أحدهم هنا بطلب ضيافة كعابر سبيل، ولأن الحاكم هنا يتمتع بأخلاق كريمة و أحترام عال،لم يتقدم برفض طلبه بل دعاه للمكوث معه في خيمة واحدة، أقام هنا عدة أيام مثلة كمثل علية القوم هنا،حتي جاء هذا اليوم الذي سمع فيه أحد الصغار صوت أنين أحد الرجال بالداخل فتسارع الجميع ليروا ما حدث، كان قد فر القاتل بفعلته قبل قدومهم ب ٤٠ دقيقة ، دس له السم في الطعام فسقط صريعا دون أي مقاومة . -
لم يعقب علي ما سمعه ،فالأمر كان في غاية الأشمئزاز تابعا سيرهما في المكان

قليلا حتي ناداه الحارس و أذن له بالدخول .

* * *

قال لي أحدهم ذات مرة - لكلٍ منا ماضٍ سيئ ، لكن من ذا الذي يصنع حاضراً مشرق !-

قد يتساءل البعض منكم..
ما الذي يجعلك تثق برجل غريب لا تعلم من هو و لا من أين أتي و ما عمله ،فقط تعرف كنيته وان كانت حقيقة ..
لا أعلم حقاً أن كان هذا الرجل أهلا للثقة ،لكن لم لا أثق برجل يعطيني مال وطعامٌ ومأوي ! ،أنه لطيف ولم يسبب لي الأذي حتى الأن ،كما انه احضرني لأقيم مع صديق له ،يبدو هذا ايضا رائع ..ثقتي الجيدة بالله تجعلني اثق في الاخرين ..
وطأت قدماي عتبة الخيمة ،فبدت من الداخل أكثر أتساعا مما بدت عليه بالخارج،الوسائد المتراصة بجانب بعضها و الطاولات المنخفضة المملوءة بكثير من الأصناف و الشاي في الاباريق المزينة و الأكواب الكرستالية..
أما عن الرجال فكانوا يرتدون جلبابا طويلا مزين بألوان زاهية و أقمشة كتانية،يضعون عمامة فوق روؤسهم، و عيونهم مكحلة باللون الأسود ،تري بداخلها عائلة صغيرة يقف ورأها فارس شجاع لا يهاب شيئا ، يهابه الجميع .
أما بالنسبة لأول من وقعت عيني عليه ، فهو رجل كهل قد يبدو لك في الستين منه عمره او ربما أكثر أو أقل ، يجلس القرفصاء علي وسادة مرتفعة ويتوسط المجلس بين الجميع رافعا رأسه ،لديه نظرة حادة كالصقر ،له لحية بيضاء صغيرة و تبدو عليه بعض الحكمة .
وكما تظن، أنه شيخ القبيلة و زعيمها الذي يترأسها في أغلب المجالس و يقود حروبها و يحكم بين أهلها.
مشيت بخطوات ثابتة محاولا أخفاء أرتباكي أمامه للمرة الاولي ،أشار لي بعينه أن أجلس ، فجلست أمامه مباشرة .
وضع يده اليمني فوق رأسي و تأملها قليلا و كأنه يتفرس شيئا ما ، ثم أنزلها

ورتب علي كتفي مع ضحكات غير مسموعة .
- إذن أنت صادق كما يبدو .. صحيح؟- قالها بصوت مريب
-أو ربما تغيرت ملامحه أثناء تلك الرحلة الشاقة ،أنت من يراني لست أنا-
-لا تقلق ستجد هنا الأمر أكثر مشقة مما بدا لك ، لكن أقسم لك... ستجد ما هو أكثر مما تريد-
- ما أريد ! و ما أدراك بما أريد-
أنت تريد المتعة ! ثم ماذا ؟! -
-السعادة ؟- قلتها متسائلا
- وما يليها ؟!-
- المزيد من السعادة !- قلتها ضاحكا .
شعر مني ببعض الأستهزاء ،فضربني ضربة خفيفة علي رأسي ..
- أحمق و رب الكعبة - قالها بصوت عالي حتي التفت له الجميع .
استطرد : - السلام - قالها بصوت عميق
- الأن أرحل و عد غدا، لا تنس .. سأراك عند شروق الشمس-
أبتسم و طلب مني الرحيل ، فسلمت عليه و نهضت من مكاني للخارج ، أراك تجلس هناك متساءلا أين العجوز ! ، أنه هناك يجلس فوق صخرة كبيرة في الوضع المنتصب ممسكا بهاتف محدثا إحدي الفتيات مما قد بدا من تأنيث للكلام .
عندما أقتربت أكثر أقفل الهاتف سريعا و نظر لي مبتسما ثم أمسك بيدي و نهض و لم ينبس ببنت شفة و ضمني الي صدره ، إحتضني بشدة حتي كاد يمزق ضلوعي ، لم أفهم ما سبب هذا الوداع الحار لكنه قال أنه يجب أن يرحل لأن لديه أمور هامة و أعمال أخري ، طلب مني أيضا نسيان أنه قابلني ، وطمأنني أنني سأجد هنا كل ما أحتاج اليه ..

* * *

انبثقت السماء بنورها و أطلت من بين براح السماء شمسٌ منيرة تضيئ كل ما تقع اشعتها عليه ..

ازحت الغطاء من علي جسدي،امسكت بشق تمرة ودسستها في فمي ،لم تغمض لي عين من البارحة ،فوداعه الحار المبهم ترك بداخلي الكثير من الشكوك و الاسئلة التي لا اجد لها اجابة .
كانت خيمة صغيرة بالكاد تتسع لشخص ، ولحسن حظي انني لم اكن ضخم الجثة ، لم يكن بها سوي بعض التمور و مياه ، والأن علمت سر صحتهم الجيدة ، شعرت بجفاف حلقي فتناولت كاس ماء و خرجت استنشق بعض نسمات الهواء فوجدت رجل البارحة يجلس علي صخرة ممسكاً بحصات يلقيها في الفضاء.
اقتربت منه قليلا ثم استنتجت انه الشيخ -طه- ، يبدو انه كان ينتظر استيقاظي ،شعرت بخجل شديد منه وبادرت في الاعتذار لكنه لم يبالِ لكل هذا ،امرني ان اسرع لكي نلحق برجل ما سنقابله الآن ،حاوت ان استنتج منه بعض الاجوبة لكنه كان فقط يعطي الاوامر لا يجيب مما زاد من ازعاجي ،لكنني حاولت ان احافظ علي هدوئي لكي اظهر له انطباع جيد عني في البداية.
سرت كثيرا علي قدماي حتي تورمتا واحمر لونهما ،طلبت منه ان نجلس لبضع دقائق فخطوة اخري وسيغشي علي ،لكنه كالعادة لم يبالِ واخبرني انه لم يتبق سوي القليل، لم يكن باليد حيلة سوي اطاعة اوامره ،اكملنا السير وما ان وصلنا ،شعرت بخدر يسري في كل جسدي وكأن كل شيء من حولي رأته عيني من قبل ،أعلم هذا المكان جيداً لولا انني لم أعبأ من قبل لتعرفت علي وجوه المارة الان .

* * *

الأسواق و الحوانيت المتراصة بجانب بعضها البعض الممتلئة بالأطعمة بجانب المفروشات و الكثير و الكثير يتجادلون و يبيعون و يشترون ، عادة ما أكره الزحام لكن تلك متعة أخري وجدتها في تلك الأسواق لا أعلم ما هي لكنها تصل بي لنشوة ما .
اصبحت في ملكوت اخر ،وخزني الشيخ في كتفي كي افيق من احلام يقظتي لكن هذا لم يكن حلماً انه السوق ذاته مع وجود الرؤس السوداء للنوبيين !!
-أنحن حقا في شمال الصحراء الغربية - تفوهت بها بتعجب

فأجابني الشيخ بشيء من السخرية - أجل علي ما أعتقد -
بالكاد لا يمكنني اخباره بأنني رأيت نفس المكان من قبل في بلدة أخري والا سيضحك ويقول عني مخبول !
-لما تكثر هنا البشرة السمراء- سألته محاولا التهدئة من روعي .
- يأتي الكثير من جنوب القارة هنا كي يعملوا بالتجارة او توصيل البضائع بطرق غير قانونية كما تعلم -
هززت رأسي متفهماً ،لكن في النهاية هذا ايضا لا يجيب علي سؤالي كيف نحن هنا في اسواق اسوان وبالفعل مازلنا في الشمال !!
لا يمكنك تصور الصراع الداخلي في رأسي، حاولت تجنب كل هذا والاسترخاء قليلاً ،اشعة الشمس حارقة اليوم ولا بد أن ننهي ما جئنا له بأسرع وقت قبل أن اصبح قطعة خبز محمصة .
اصطحبني الي راعٍ يقول أنه صديق قديم له ، لديه منزل ريفي صغير مكون من طابقين و حديقة بها بعض النعاج البيضاء ، طرق الباب مرتين ولم يجب أحد ،حمدت الله كثيراً فلا أعلم ما فائدة قدومي الي هنا لكن بعد الطرقة الثالثة فُتح الباب أخيراً وخرج من وراءه ظل اسود مريب لرجل يبدو أنه كهل لم استطع ان اميز جسده بوضوح فالظلام الحالك كان يخفيه ، رويداً رويداً بدأ بالتقدم ناحيتنا ومع كل خطوة يخطوها تصبح ملامحه أكثر وضوحاً ،في الخطوة الاخيرة ... وثب سريعا واحتضن الشيخ بحرارة وكأنهما لم يلتقيا منذ زمن ،لم اشعر بأي حماس او فضول لكي اري وجهه بالكاد يشبه اي كهل في سنه .. انتهي كلاهما من الترحيب ثم التفت لي متبسما وفتح لي زراعيه ... حينها فقط تصلب كل جزء في جسدي ، اجحظت عيناي وبدا كأنما رأيت شبحا ،لا لم يكن شبح كان بشري لكنني أعلم جيداً من هو ، ظل ينظر لي والإبتسامة العريضة ذاتها مرسومة علي وجهه المجعد .. لن تصدقني أن قلت لكن أنه العجوز (صادق ابراهيم) لأول برهة ظننت أنها مزحة منه ، لكن بعد ان جذبني ناحيته واحتضني بشدة مُرحباً بنا وقام باستضافتنا لمدة لا تزيد عن النصف ساعة وأنا علي حالي من الذهول والذي زادني زهولاً انه لم يكن يعرفني ، وكأننا نلتقي

للمرة الأولي ،حينما قلت له -كيف حالك يا سيد صادق - نظر كليهما بتعجب ساد وجهيهما وقال الأخير متسائلاً - من أين علمت اسمي يا هذا - هنا كانت الصاعقة الاولي تهوي علي جسدي ،لم انبس ببنت شفة و حاولت سريعا تحويل الموضوع الي مزاح .. استمر الحديث بين كليهما بينما اشاهد في ترقب و الاسئلة في عقلي تزداد ويزداد معها صراعي .

أخبرني -طه- بأنني سأعمل لدي العجوز و تلك كانت الصاعقة الثانية ، تريد منى أن اعمل مع رجل التقيت به من قبل والأن يدعي أنه لا يعرفني ، ربما كان شبحاً لرجل توفي منذ زمن طويل والأن يظهر لي لكي ينتقم مني .

-رجل كهل في السبعينات كان يعمل راعياً ، وكما تعلم السن وأحكامه .. أصبحت أعمال الرعي شاقة عليه و يريد شاباً في مثل عمرك كي يعمل لديه ، سيعطيك مبيتا و طعاماً ومالاً إذا احتجت، مقابل أن ترعي له نعاجه الثماني - قالها طه موضحاً لي الحال هنا ..

سلمت امري لله ورضيت بما قد كتب لي ،سأبدأ العمل في نهار يوم غد ، والأن ينتهي الحال بكاتب مثلي ليرعي اغنام رجل غريب الأطوار في السبعين .

عدت الي موضع خيمتي وقد قضي اليوم علي ما تبقي في جسدي من قوة ، اليت الي فراشي محاولا تجنب اي افكار قد تراودني الأن وبالفعل نمت كالاموات ولم اشعر بأي شيء يدور حولي.

ايقظني الشيخ طه في الصباح بعصاه فقمت مسرعاً ارتدي ملابسي و اتناول بضع رشفات من كأس المياه بجواري ،انهيت كل شيء في تمام الثانية عشر ظهراً .. اصطحبني معه علي ناقة بيضاء الي بيت العجوز المريب .. وما ان نزلت من عليها حتي رأيته مستنداً علي جزع خشبي ويلوح لي من بعيد .

إبتسمت له مجاملاً وسلمت عليه ثم اصطحبني لداخل منزله و قدم لي الشاي الساخن في الأكواب الكرستالية و بدأنا حديثنا عن طبيعة العمل هنا وكم أن الامر يبدو سهلا لكن علي العكس فالأمر شاق ، من رأي الخاص الجلوس مع النعاج طيلة اليوم كان أفضل بكثير من الجلوس مع غريب الأطوار .

قدم لي غرفتي في الحظيرة ، كانت عبارة عن ملاءة مفروشة علي الأرض و وسادة

مر عليها الدهر فأصبحت بالية ،يحيط بي من جميع الجوانب القش و روائح الحيوانات النفاذة ،بالكاد لم أكن أنم سوي ثلاث ساعات ثم أشعر باختناق فأخرج لأنام في الهواء الطلق ، فينال مني البعوض ،الوضع مزري حيث لا يمكنني البقاء هنا ليومين أخرين ..

نمت تلك الليلة بصعوبة محاولا تذكر شيئاً ما ينسيني الرائحة البشعة ،بعد قليل نهضت وشربت جرعة من الماء ،ثم تناولت عصاي، وأخذت بإيقاظ النعاج التي كانت لا تزال راقدة ،وقد لاحظت ان معظمها تستعيد وعيها بسرعة وتتخلص من النعاس وعلي الجانب الأخر ما زلت أحاول أن استعيد وعي ،كان بعضها يماطل بالاستيقاظ ، فأوقظها واحدة أثر اخرة بعصاي ، ظننت أنني لن أطيل هنا لكن حدث ما كنت لا أتوقعه ،اعتدت الجلوس يومياً مع تلك النعاج أخاطبها كأصدقاء يقينا مني دائماً أنها تقدر علي فهم ما أقول ،أطلقت علي كل واحدة أسماً أناديها به وكانت تستجيب معي سريعا ، كنت أقرأ لها بعض المقاطع من الكتب، أو اتحدث لها عن عزلتي وسروري،ثم أفسر لها أخر المستجدات عن العجوز المريب .

أخذتها في جولة بالخارج نعثر علي الماء والكلأ في الصحراء ،جلست أراقبها عن كثب حتي شعرت بالنعاس ، عدنا في الظهيرة فأدخلتها الي الحظيرة ،جلست أتمدد علي الأرض ثم مسحت قطرات العرق المتزاحمة فوق جبيني مررت اصابعي بين لحيتي الكثيفة التي لم اقصها منذ شهر ،لك أن تتخيل أنها لا تختلف عن صوف النعاج كثيرا .. قدم لي العجوز الخبز والجبن والشاي في كوب كرستالي كفطور ، تناولتها كلها بشراهة فلم أتناول أي شيء منذ البارحة ، تمدد بجواري و بدأ بالحديث معي ...

- أري أنك تجد رفقة جديدة تشبهك - قالها مازحاً ..

دفنت اخر قطعة خبز في فمي دفعة واحدة ولم أعقب علي كلامه ، كان فظاً وهذا ما أختلف فيه عن صادق الذي اعرفه ، اليت الي فراشي حتي موعد الغذاء لكنه ايقظني قبلها وامرني بقطف بعض الثمار ونقلها الي الصناديق الخشبية وحملها علي العربة ، قضي علي كل ذرة بداخلي من طاقة ، حتي أنني لم أنم في

فراشي بل تمددت أسفل الشجرة .
قدم لي السريد علي الغذاء لم أهواه كثيرا فتناولت منه لقمة و تقيأت ما كان قد بقي من طعام في معدتي
- لا تقلق ستعتاد عليه ، فلا نأكل سواه هنا- قالها العجوز بسخرية ..
- لا تقلق أنت فلن أكمل هنا يوماً اخر - قلتها في نفسي كاتماً غيظي منه ..

* * *

اليوم السادس ...
كعادتي استيقظت باكراً ، أيقظت نعاجي وخرجنا معاً نبحث عن الماء و العشب ،عدنا في التوقيت ذاته فتناولت ما قدم لي من فطور ونهضت مسرعا ملبيا ندائه ، أمرني أن اصحبها الي السوق كي يُجَز صوفها ، كان التاجر يملك متجراً للقماش ،وكان يحبذ أن يجز صوف أغنامه علي مرأي منه ، كي يتحاشي الوقوع ضحية للغش .
أنهيت ما طلب مني ، واستلمت المال من التاجر ،بينما أنا في طريق عودتي شاهدت مسجداً يعلم الصغار حفظ القرآن وتلاوته ، وقفت أتابع عقرب الثواني تارة و وجوه المارة تارة أخري ، ما لبثت أن رأيت الباب يفتح حتي أندفعت جميع الفتيات الي الخارج ، تفرست وجوههن .. أكبرهن في الثامنة عشر كانت تجر ثوبها وتسوي خصلاتها التي اطلت من تحت غطاء رأسها الرقيق ، كان هناك دافع يخامر زهني بالتقدم لها والحديث معها لكنني كنت اخشي رد فعلها تجاهي فتراجعت اكثر من خطوة حتي تعثرت في صخرة اسفل قدمي .. ضحكت الفتاة في خجل دون حتي أن تمد لي يد المساعدة ، حينها فقط تذكرت نادية فقمت مسرعا جاراً نعاجي دون أن أجر معي سيل من الذكريات الذي لن ينتهي .
عدت الي المنزل فالليل قد طبق والشمس قد انحدرت الي مغربها ، شكرني العجوز علي ما قمت به من خدمات، لكن من شدة الألم المتغطرس، اليت الي فراشي مسرعا دون أن ارد له شكره عازماً أن أطلب مغادرة هذا المكان صباح غد او أن القي الشيخ طه ،أيهما أولا لا يهم ..

---

* * *

نهار خارجي
..٩:١١
اسفل لافتة كبيرة مكتوب عليا بخط ديواني -مقهي- كان صادق يجلس علي كرسي مستندا برسغه علي الطاولة متأملاً فنجان القهوة السوداء التي تبدو تماما كمستقبله الذي بات لا يعلم عنه شيء ،أمسك بها ورشف القليل منها ثم بصقها علي الأرض بعدما تبين له أنها اصبحت باردة، ثلاث ساعات استهلك فيهما لتراً من القهوة كافية للإيقاظه عام أخر أو القضاء عليه بسكتة قلبية ..
إناس يأتون و يذهبون ومازال يجلس علي حاله ، أعطاه العجوز اجازة مكافأة له علي ما قدمه طوال فترته معه ،فاغتنم الفرصة وجلس علي المقهي رامقا الناس بوجهٍ عابس متأملاً حبات الرمل التي تتبدل بين الفينة و الاخري ، تأمل صورته المنعكسة في كوب الشاي الذي وضعه النادل بجواره ولم يلحظه منذ ثوانٍ ،رأي أنعكاس لعجوز في منتصف الثلاثين ، اجحظت هي عيناه ،مغرورقة بالدموع ،تبرز بها الشعيرات الدموية الدقيقة ،أشفق علي حاله والتفت حالما رأي ظلا يتجه نحوه مسرعاً .. كان الشيخ طه .. فالقي الأخير عليه التحية فلم يردها ، أمسك بيده وقال له بإبتسامة أمل :
-جائني ندائك فجئت سريعاً ، أبشر !!.. سترحل معي اليوم وجدت لك عملاً جديداً هنا- .
زاد بريق الأمل في عينيه ،كاد يسأل عن العجوز فأردف الشيخ :
-لا تقلق سويت لك كل شيء .. والأن .. أذهب وبدل ملابسك والحق بي لأطلعلك علي باقى التفاصيل -.
لم يجد من الكلمات ما يرد له فضله عليه ففضل الصمت ، بالرغم من السعادة التي غمرته من الداخل ، كان هناك صوت بداخله يخبره بأنه سيلتقي بكارثة أخري عما قريب ..

* * *

بجانب كل شيء قد رأيته موحش وغريب ..لم تسعفني ذاكرتي لأقص لك ما

رأيت عن سكان هذه الصحاري أو عن حيواناتها و نسائها الخمرية ..
تقوم حياة سكان واحات الصحراء علي تربية الجمال و الماعز ، لكن اعتمادهم علي الإبل يختلف قليلاً عن تلك التي يتبعها البدو الرحل .. ففي وسط الصحراء تربي الجمال لسببين .. الغذاء المباشر و البيع ،بينما يربيها سكان الواحات (وديان الغاف)،علاوة علي ما سبق للنقل التجاري و المسافرين، تمثل الجمال عصب حياتهم و مجال اهتماماتهم اليومية .
بالإضافة الي المراعي الطبيعية ، اهم مصادر غذاء الجمال وقطعان الماعز.
وفي أوقات القحط يلجأ البدو الي الجاشع والتمر الحائل والحشف لتوفير الغذاء للنوق والماعز علي حد سواء..ولا ننسي دور النساء ، الي جانب المهام المنزلية،تربية الماعز والسرح بها في المراعي ، والأشغال اليدوية المصنوعة من وبر الإبل وصوف الأغنام .
ويمثل اتقان مهارات العيش في منطقة تقوم في اشد المناطق في العالم قسوة ليس ضرورياً لحياة الفرد وحسب ،بل يسوغ بمرور الوقت كيانه و قيمه الإجتماعية ومن ثم مواقفه وعلاقاته تجاه القبيلة التي هو عضو فيها .
وليس ثمة متسع في حياة البدو للـ -أنا- وإنما -نحن- هي سر بقاء الفرد و الجماعة .
ترتبط في ذاكرة الناس ان الحياة الاجتماعية في الصحراء جدباء كوحشة المكان الذي لا يجاوره غير الخواء الكامل علي الأرض وفي السماء . وانعكس ذالك – حسب رأيهم – علي الحياة الاجتماعية والابداع الانساني ونسوا ان الذاكرة العربية الخصبة بالشعر والحكايات والاساطير الشعرية هي نتاج الصحراء دون سواها وان البادية هي مهد اللغة العربية وحاضنتها . وعادة ارسال عرب مدن شمال الجزيرة و الهلال الخصيب – حتي وقت قريب – ابنائهم للاقامة في البادية بين احدي القبائل العربية الاصلية لاتقان اللغة و التأدب بآداب البدو خير ما يدل علي فضل البدو في ذالك المضمار .
وثمة من يظن انه لا مكان عند البدوي لأمتاع الروح في ظل صراعه الدائم مع البيئة . وهنا يخطئون ايضا ! فليالي الصحراء زاخرة بمشاهد الفرح واطياف المرح

ورواية الحكايات و الاساطير الشعبية عن بطولات وامجاد لا ينضب معنيها .
وعلي سفح كثبان رمل ناصع البياض حيث يجتمع الصبيان و البنات علي حد سواء ، للغناء وقرض الشعر والرقص ولعبة الساري علي ضوء القمر ..
والفرح عند البدو من دون سباقٍ للجمال لا بعد فرحاً ، فالأعياد و الزواج و الختان وعودة الغائب مظاهر فرح لا تكتمل اذا لم تصاحبها عروض للجمال تصاحبها التغاريد .
ذالك كان نمط حياة بعض البدو .. حياة ارتضوها لانفسهم ، لكن رياح التغيير التي هبت علي دول الخليج العربي في العقود الاخيرة من القرن المنصرم بسبب اكتشاف النفط انهت ذلك ، الي غير عودة ، اساليب الحياة للبدو بأشكالها كافةً ، وأخذت سماتها تتغير وطغت علي حياتهم إفرازات النمو الاقتصادي .
وكانت اكثر التحولات هي تلك التي ترتبت علي ادخال اساليب النقل الحديثة ،فقد شُقت الطرق المسفلتة الصحراء وحلت السيارات محل الجمال . ولم يكن بوسعهم سوي التخلي عن نمط حياة لم يعد يلائم العصر ، وتحولت التجمعات السكانية تلك الي مدن صغيرة تنعم بالمساكن الاسمنتية الحديثة و الكهرباء و المياه و الخدمات الاجتماعية ،كالتعليم و الرعاية الصحية ، لا سيما ان هناك البعض ما زال يحتفظ بنمط الحياة القديم متمسكاً بزمامه .
اصطحب الشيخ صادق ليمروا علي خيمته ،بدل ملابسه ولأنه لم يكن معه الكثير اقترض جلبابا كان فضفاضا عليه و طريف ، اكتمل سيرهم حين وصلوا الي ساحة المسجد الذي جلس فيه صادق من قبل ..شعر بقشعريرة عندما خطت قدماه داخل المسجد فارتاح جسده و هدأت نفسه ، اقاموا صلاة الظهر و بعدها جلسوا يتلون بعض الآيات ثم اجتمعا في الساحة الواسعة و نسمات الهواء تلامس جبينه بلطف .
- لا بأس إن لم ترتح في العمل ، فوالله يا صادق أنت مثل ولدي الذي لم أنجبه ، لذا حصلت لك علي عمل رائع ، انا واثق وبشدة من قبولك له - قالها الشيخ .
داعب صادق لحيته الكثيفة مستنبطا عمله الجديد -زراعة ! لا لا .. لا بد أنها في مجال التجارة .. لا يوجد هنا سواهما - قالها في نفسه .

- وما هو عملي الجديد المشوق- قالها صادق متسائلا .
- أنت تعلم أننا هنا في صحراء واسعة .. ورغم التوسعات الشديدة في مجال الكهرباء لا تزال هناك بعض المناطق خالية منها ، لذالك فأهلها يستعينون بعلم لتحديد مواقعهم ... وليس هذا فقط ، بل الكثير ، ويبدو انك رجل واسع الأفق و يقظ الذهن لمثل تلك الأمور -
شرد لبه قليلا قبل ان يستعيد وعيه مستبشرا بعمله الجديد .
-بالفعل .. انا أيضا اقرأ الكتب .. الكثير منها في شتي المجالات .. سيكون هذا رائع .. حقا - قالها مبتسما .
صافح كلاهما الأخر كمتفقين علي هذا العمل الذي لم يبدو لصادق كذالك .. بدا الأمر له في البداية كنزهة او ربما كنوع من أنواع السحر نادر الوجود .. لطالما سمع عنها لكن لم يتخيل قط ان تطأ قدماه ساحتها .

* * *

لم يكن الأمر يستدعي سوي السير بالاقدام بضع مترات حتي يصلا ... في مكان ما كغيره في هذا البلد .. مليئ بالرمال الصفراء و الاعشاب الجافة و النباتات الصحراوية ، اخشاب مشتعلة و موقد نار ،ثلاث كؤوس احدهم كان لصادق و الأخر للشيخ طه و الثالث للغريب ..
خيمة صغيرة بداخلها ضوء خافت يتراقص كوهج شمعة تحترق ، اشار طه لصادق بالمكوث امام الموقد وسيعود له بعد دقائق ، افترش الرمال وجلس القرفصاء ، بيئته تهيئ له التفكير في كل ما مضي من الم ، افكار وذكريات تطارده كصائدي الارواح تلتهم يوما بعد يوم ابتسامة منه ، مر شهر منذ ان ترك منزله ورحل ، احيانا يفكر في انانيته ، بالكاد نسي ان يودع جارته المسنة .. نسي ان يلقي التحية علي كل ركن تالم بداخله في هذا المنزل ، علي كل بقعة شهدت يوما حدثا مفزعا له ، هو الاخر يعتقد بأن الوداع دائما يجلب الحزن و ربما التراجع . . الرجل لا يتراجع - كما يظن هو .
وكعادتنا المصرية الاصيلة ، فتلك الدقائق امتدت لساعة مرت عليه كانها عام ،مازال يفكر في الدخول و اكتشاف ما يدور بالداخل بدونه ، لم يعد مسبقا

يطمئن للشيخ طه ، صدرت منه بعض الافعال الغريبة مؤخرا ، ربما هو الاخر ، جلس يقضم اظافره من شدة القلق ،الامر مريب حد الموت – بالنسبة له .

حسم امره و قام متوجها نحو الخيمة الصغيرة لامست اطرافه القماش الخارجي لها بحذر ، ثم شدها دفعة واحدة ، فرأي ما لم تره عين من قبل ..

مائدة قصيرة الارتفاع ممتدة بطول ثلاث امتار تتزاحم فوقها الاطباق بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب يجلس عليها رجل لا تظهر له ملامح و علي يمنيه رجل ضخم الجثة و الي يساره يجلس الشيخ طه – حسبما تبين له من ملامح .

– -صادق

يمر الوقت مرور الرياح .. يكاد يقتلك من شدته ،قرابة الساعة امسك بعصا قصيرة الوح بها في الهواء او ارسُم اشكال عشوائية علي الرمال فتأتي الرياح لتنثرها بعيداً ،كاد الملل يقتلني كذالك هو الفضول ،ماذا يدور بداخل تلك الخيمة المريبة ولم لا يشاركني احد ما يفعل قط .

جاءت رياح عاتية لتخمد شعلة النيران ،حتماً تلك اشارة لي بالنهوض لاكتشاف ما يدور بالداخل ،عزمت علي النهوض ،و علي الفور امسكت بجلبابي ونهضت..

اقتربت من الخيمة بحرص ،لامست غطائها الخارجي بحذر وازحته ببطء ، شيءٌ غريب ..حقاً في غاية الغرابة ،كيف لخيمة صغيرة لا تتسع سوي لشخصان من الخارج أن تحوي مائدة بطول ثلاثة امتار تتزاحم بالاطباق،وثلاثة رجال احدهم يرأس المائدة يتمتع بجسد هزيل قليلا و بشرة بيضاء شاحبة علي ما يتضح لي و عمامة فوق رأسه ينسدل منها وشاح خفيف لا اعرف ما الفائدة منه ،و طه علي ما يبدو الي يمينه و الي اليسار ،عبدٌ اسود مفتول العضلات يرتدي سترة بدون اكمام وفوق راسه قبعة صغيرة طريفة ، كلاهما ينظر للرجل الذي يترأس المائدة باهتمام شديد و كأن ما يدور حوله الحديث بالأمر الجاد .

لحسن حظي لم يراني أحد ، فأنتهزت الفرصة وتراجعت فوراً لمكاني ، أمسكت كوب الشاي ورشفت منه القليل وتلحفت الهواء ثم تمددت علي الرمال التي ما زالت تحتفظ بقليل من الدفء ، بدأت أشعر بالنعاس ،حاولت المقاومة لكن

دون جدوي ،لا أحد يقف في طريق النوم ،غلبني النعاس كطفل صغير ...

* * *

بعد ساعتان ...

صحوت من غفلتي فوجدت نفسي مستلقٍ علي حصير في الخيمة التي حدثتك عنها ، يحملق بي ثلاث رجال ،اتكأت علي ساعدي وساعدني احدهم في النهوض ،شعرت بخجل شديد فبادرت بالاعتذار لهم ، قال لي احدهم انه لا بأس جميعنا يغلب عليه النعاس دائما ،قدموا لي الشاي و الماء والطعام ،تناولتها كلها بشراهة لم اتناول شق تمرة منذ الصباح .. بعد ان كدت انهي طعامي جاء شاب يبدو لي في مثل عمري ،القي السلام فلم ارده وجلس امامي مبتسما لي ،شعرت ببعض الاحراج من حملقته بي ،فدسست ما بقي من طعام في فمي حتي كدت اختنق.

- مرحبا كيف حالك - قالها مع الإبتسامة ذاتها .

- أشكرك ،بأفضل حال -

- حسنا .. دعنا لا نضيع وقت أحدنا الاخر وندخل في صلب الموضوع ،اظن أن الشيخ طه قد أعلمك بما قد جئت من أجله ، أنا هنا لأعطيك ما تريد .. لا اريد الدخول في تفاصيل الان ، تعال معي نتناول شيئا ما ؟! -

- لا .. أشكرك .. تناولت وجبتي منذ قليل ،كما تري .. -

- لا بأس إذن .. هيا نباشر عملنا - قالها واشار لي بأتباعه .. كان ينتظرنا بالخارج سيارة دفع رباعي سوداء كما رأيتها من قبل ، جلس هو بجانب السائق وجلست في المقعد الخلفي ، سيارة كتلك لا نركبها كثيرا تلك الأيام -

ساروا بنا في طريق صحراء متشابهة كلها تماماً بحيث لا تدري الي اين انت ذاهب ، لم يكن هناك سوا الرمال و الظلام و النجوم الساطعة في السماء

- لم الطريق خالية ، هكذا يصعب معرفة وجهتنا ! -

- سيدي .. اعذرني ، لكن هذا تقريباً ما جئت أنت لتخبرنا إياه -

- أنا !! - قلتها بذهول

قالها الشاب الماكث بجاوره - بني .. انت في الصحراء ، لن تري لافتات إعلانية او أماكن أستراحة او مطاعم الوجبات السريعة تلك -

استطرد - أنت شاب في العشرين ... -
- الخامسة والثلاثين -
- نعم .. نعم الخامسة والثلاثين ، المهم أنه لابد أن تكون أكثر فطنة في الأيام القليلة القادمة -

* * *

بعد مرور ساعة ونصف من الزمن الذي بتُ لا اشعر به ، وصلنا الي منطقة مظلمة لا يوجد بها سوي شعلة تتوسط مجلس شبان يبدو أصغرهم في العشرين واكبرهم في الثلاثين او اكثر او اقل ، سلمت علي بعضهم والقيت السلام علي الاخرين ، جلست معهم ، تشاطروا الحكايات والاساطير و بعض النكات السخيفة ، مللت مجلسهم فقمت من مكاني ثم تبعني ذالك الشاب من الخيمة السابقة ، قال لي أنه سيبقي الأمر سراً عني حتي غد ، وفي الصباح الباكر حالما أستيقظ سأعلم ما سيدور هنا ، فالجميع هنا مثلي تقريباً بالكاد لا يعلم لما هو هنا .
دخلت خيمتي الصغيرة و جدتها مرتبة و نظيفة وبها ماء فقط.. تناولت كاسا منه ، ثم اخرجت من حقيبتي قلما ومدونة ، دونت أحداث اليوم و اليوم السابق ، وبعض الملاحظات ، والخطط المستقبلية إن سنحت لي الفرصة ، أطفئت الأضواء فخلد الجميع في فراشه ، تماماً كما كان يحدث في المعسكر الصيفي فعندما كنت صغيراً ،كان يرسلني والدي الي هناك ، كانت تلك اسعد لحظات حياته حينما اغادر المنزل ، وتصبح الاسوأ حينما أعود ، انقلبت حياتي مؤخرا رأسا علي عقب ، استيقظت يوماً لا أدري الي اين اذهب هائماً علي وجهي ، ثم اقابل عجوز غريب الاطوار في قطار يصبح رفيقي فيما بعد ، يصحبني الي بدو غرباء لا اعرفهم فاقابل شيخهم فيرسلني للعجوز مرة اخري حيث لا يدري من انا وكانه فقد الذاكرة ، لأتركه والتقي بشاب ثلاثيني يصحبني لمخيم كمخيمات اللاجئين ، اذن فالقادم اسوأ من ذالك ..ربما غداً او بعد غد ، او في سنين لم تعد .

* * *

نهار خارجي ..

جاء الشاب المدعو -خالد - الذي قابلته ليلة امس ، امسك بعصاه و قام يضربنا علي رؤسنا واحداً تلو الاخر و كأنه يوقظ نعاجه ، كتمت غيظي بداخلي ثم خرجت من خيمتي ، وجدت فطورا لا بأس به معدا علي طاولة كبيرة تتسع لعشرين فرداً ، تناولت ما كان امامي بنهم ، خسرت الكثير من الوزن منذ ان جئت الي هنا ، لم ار وجهي منذ فترة ، لكنني استشعره كلما لامسته انامليِ ، نمت لحيتي و امتلأت بالغبار ، انهيت طعامي ونهضت فناولني احدهم كأس ماء وأخر ناولني ماء لانظف يدي ، كان يقف علي بعد يرمقني بنظرة غريبة ، حاولت التظاهر بأنني لا اراه لكن فور ان انتهيت جاء هو وامسكني من رسغي و طلب مني مرافقته ، تمشينا قليلا علي الرمال البيضاء حتي وصلنا لبقعة لا يرانا ولا يسمعنا فيها أحد ، شعرت انه في الخطوة التالية سيخرج سكينا من جيبه ويضعه في رقبتي ، لكنه نظر لي وقال :

- لقد وعدتك ليلة أمس بأن اخبرك عن طبيعة عملك ، وها انا ذا اوفي بوعدي لك .. اتري الرمال ، تري حركتها ! هذا هو عملك ، لا اعلم ماذا تسمونها في بلدكم ،لكن كما تري فعملي هنا هو استنباط الاشياء -

- الفراسة .. نعم اعرفها ، قرأت عنها القليل ، لدي الكثير من الكتب بالمنزل و .. -

قاطعني قائلا :

- رائع !! فلتنس كل ما قرأته واصغي لي بأذُناك هنا - قالها بجدية ..

- كُلى آذانٌ صاغية -

جلس علي صخرة كبيرة وتربعت انا علي الرمال ، كان يتحدث لي بلهجة معلم الي تلميذه ،كم يذكرني بوالدي ،وشرودي تجاهه وتلك اللمعة في عيني مثل الطفل الذي يحكي له والده عن مغامراته القديمة ، رغم انني اكبره سناً الا انني وللمرة الاولي اقدم الاحترام لاحد يصغرني سناً ، ياله من شاب ذكي ،حدثني انه درس في كلية الحقوق بالقاهرة ، وانه يصغرني بثلاث اعوام ،يبدو وسيما نوعا ما ،وعلي ما يبدو من لهجته انه قرأ الكثير من الكتبِ العلمية ، اخبرته الكثير عني لكنني عندما وصلت لقصتي مع نادية توقف لحظات افكر ، ان تلك هي

اللحظة المناسبة لكي امحوها من امامي ولا اذكر شيئا عنها ، فتلك مجرد ذكري من الماضي ..
تغير شكلي كثيرا عن ما جئت به الا هنا ، فقد جئت بدينا ، اصلع الرأس – ليس مرضا انما قصصته مؤخرا – ابدو كرجل كبير ممل ، لكنني الان ابدو كشاب ، جسدي ليس ممتلئ الي حد ما ، وقد اصبح شعري املساً و طويلا يصل الي نهاية الرقبة ، نمت لحيتي مؤخرا لكنني قصصتها قبل يومين .. ابدو الان مثل طبيبِ اول رجل اعمال ذو اهمية كبيرة .. كما ان وجهي صار ممتلئا عن ذي قبل ، ثم اصبحت اكثر هدوءا وتحكما بالذات ، المكان هنا جيد للغاية للعيش به ما تبقي من حياتك ..
حل الليل ، فاشعلنا نيرانا وكونوا حلقة حولها ، توسط هو المجلس بحيث يراه ويسمعه الجميع ..عم الهدوء وانتشر الصمت ارجاء المكان ،والكل منصت له ..
- منذ آلاف السنين ،حاول الانسان قراءة ما يدور في خلد الأخرين ، ومعرفة شخصياتهم ،واخلاقهم ، وكانت معظم المحاولات تعتمد علي اوجه الشبه بين شخص ما وشخص اخر يعرفه الانسان ، والاخلاق التي تعزي لهذا الشخص ،وكانت نتيجة هذا ظهور ما يسمي بعلم الفراسة ، وعلم الفراسة علم قديم منذ ظهور الانسان علي هذه الارض . فقد ذكرت عنه اشارات في القرآن الكريم منها قوله تعالي : -يُعرف المجرمون بسيامهم - وايضاً قوله : -تعرفهم بسيامهم لا يسألون الناس إلحافاً - ..
جاء رجلٌ ثالث ليس -خالد- ولا -طه- ،سرنا سويا في الليل ولم يكن يحدثني كان فقط يتأكد بين الحين والاخر انني ما زلت معه ،وصلنا قرابة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً ،كما قلت لك من قبل لم يكن معي ساعة لذا لم اعرف التوقيت جيداً ،فقط تنبئت بما قد يكون ،صار المكان فارغا تماما ،لم يكن به سوى انا وهو و صرير الريح ،استوقفني لحظات ،سعل بشدة ونظر للمكان من حوله وقال لي : - انا من سيكمل معك الطريق هنا ، ربما ستكون تلك نهايتك ، لا اقصد ارعابك فأنا لا ازخرف ، فقط كل ما في الامر انها هدية وداع لك لا اكثر ، لان من هنا احبوك ،رغم ان لا احداً منهم يعرفك جيداً ،حتي انا .. لذا رجاءا

سيدي فلنباشر .. -
احضر لي قدح الشاي ووقف يقص لي كل شيء عنها ، حتي اشتدت بنا ظلمة الليل فأويت الي فراشي ، اخبرني اثناء حديثنا ان غداً موعد بقائي الاخير هنا ، كم سأشتاق لتلك البلاد ...

بداية النهايه

جنحت الشمس للمغيب ، فتضرج المغرب بنور الغسق وهبت نسمة علي الصحراء ..
تذكرت وانا اجالس صخرة - اعتدت وجودها لفترة بجواري - قول أحدهم لي : - فمن تلك الأشياء التي لم نعتد أن نراها كثيرا سوي في العمر مرة ،لا تتحدث عنها مطلقا -
و تلك الساعات القليلة التي عشتها هنا ... كانت أشبه بمغامرة كبيرة ،بعد أن تناولت قدح الشاي أمامي، جاء الرجل مفتول الجسد هذا ،وأمسكني من كتفي وجذبني وراءه دون أن ينبس بكلمة ،لم أرد أن أتكلم حتي لا يصبح مصيري كفراء القط الذي يلتف عنقه ..
ترك كتفي الهزيل بعد ان وصلنا لبقعة فسيحة ،شبك كفيه ببعضهما وقال لي بنظرة حادة :
- أكره مضيعة الوقت..ككرهي للقطط، لذا فلتطع أمري حتي ترحل بسلام -
- نعم نعم أتفهم ..أنا أيضا لست من هواتها -
- لكن ما النفع ! -
- قلت لك من قبل .. من هنا أحبوك ..فأرادوا أن يورثوك شيئا قيما لديهم ، الا وهو علومهم -
أومأت و ترقبت بداية حديثه في صمت ...
توجد أربعة جوانب لا بد من أخذها بعين الأعتبار عند تحليل شخص ما وقرائته ، هي : (الكلمات - الصوت - الوجه - الجسد) ،فالكلمات وحدها لا تكفي لحكم صحيح عن صاحبها ، فكم من كلمات غير صادقة تقال لنا ونظن

صاحبها صادقا ، ونكتشف عكس ذالك من خلال تعابير وجهه وحركات الجسد ،فالجسد و الوجه لا يكذبان
. نكتسب المعرفة بقراءة الكتب ولكن المعرفة الأكثر أهمية تلك التي تتعلق بمعرفتنا بها يحيط بنا ولا يمكن اكتسابها الا بفهمنا للأخرين و استيعابنا لكافة أشكال الشخصيات الأنسانية .
يعتبر السوق مكان ممتاز لمراقبة كافة اشكال الانفعال العاطفي الانساني ،فبينما يصل و يغادر البائعون و المشترون ،من المحتمل أن تري امرأة تخشي الأزدحام وتعبر عن ذالك بقرصها لظهر كفها و ذالك لتطمئن نفسها و كأنها تقول لنفسها : - كل شيء سيكون علي ما يرام - تماما كما يفعل البعض بقولهم - يجب أن اقرص نفسي لأتأكد من أنني لست احلم -
إن عيون البشر تتحدث تماما كألسنتهم لكن بميزة واحدة وهي أن لغة العيون لا تحتاج الي قاموس بل هي مفهومة في جميع انحاء العالم
فمثلا كيف يعرف البائع ما يدور في ذهن الزبون ..
اذا كانت عينا العميل تنظر لأسفل ووجهه ينظر بعيدا فأعلم أن هذا العميل يرفضك ، أما اذا كان الفم منبسطا دون وجود ابتسامة باردة و الوجنتين ممهدتين ،عندها من المحتمل أن يكون هذا العميل يفكر بعرضك ،بينما اذا كان ينظر في عينيك مباشرة لعدة ثواني و ابتسامة خفيفة في احدي زوايا الوجه تمتد تقريبا الي مستوي الأنف ،فأعلم عندها أنه يحسب عرضك لكن اذا تحرك رأسه ووصل الي نفس مستوي رأسك و يبتسم ابتسامة هادئة و يبدو متحمسا عندها تكون البيعة قد تمت ..
لا أريد أن اطيل عليكم بما قيل لي ف نحن نعذر دائما الذين يشعروننا بالملل لكننا لا نعذر من نشعرهم بالملل ، انتهي لقائي مع الرجل في منتصف الليل تقريبا ...
توجهت لخيمتي لأعد ما بقي لي من متاع و اغادر في الصباح ..
التفت اليها ، فشاهدت شابة في عز الشباب الا ان ملامحها و قسمات وجهها كانت تتحدث عن اطلال من الهموم عصفت بها و أذبلت نضرتها الدموع التي

ذرفتها العينان النجلاوان
-ما الذي أتي بكِ الي هنا ؟ -
- أنت .. يجب ان نرحل من هنا معا -
- اصبتي .. يجب أن نرحل من هنا ، لكن ليس معاً -
- أعلم أنني ربما اخطأت بحقك كثيرا ،لكن يمكننا نسيان ما حدث و نعود سويا لسابق عهدنا ! -
- نادية ...نادية عزيزتي ،أنا هنا النذل و ليس أنت ،أنت امرأة ناضجة و لطيفة و هنا الكثير من الرجال يتمنون لو تنظرين فقط لهم ، أحملي ما تبقي لك من روحك المهدرة وارحلي و ربما تلتقين برجل ، يجعل منكِ المرأة التي يحلم بها -
- سأرحل .. لكنني لن اعثر علي أحد ليقضي علي ما تبقي مني .. سأنتظر عودتك يوما ما .. وأعلم يقينا أنك ستعود ..-
- اعتني بنفسك جيدا .. أنت رائعة حقا -
- لم أتِ من أجلك علي أي حال ، جئت فقط كي أودعك و أقول لك أنني يمكنني أن اتركك الأن ، لن تشعر بالملل مجددا .. حسنا ! -
غادرت دون أن تنبس ببنت شفة .. جرت ثوبها ورائها و أختفت في العدم ...
اشتدت الرياح في تلك الليلة وكأن عاصفة ما ستحل علينا ،كأن صوت صريرها تقشعر له الأبدان ، حتي ان بعض الخيام قد اقتلعت من مكانها ، صارت خيمتي هزيلة و تفكك جزء منها ، خرجت مسرعا محاولا ان انفذ منها سلام ، لكن كان هناك أم ورضيعها يناديان و عربات تنقل الكثير الي اماكن آمنة ،لم يكن هنالك سوي مكان واحد ،فتركته للام والصغير وسلمت امري لله ..
جلست القرفصاء في مكاني منتظرا قدوم اجلي .. اشتدت الرياح بعد حين و زادت كثافة الرمال في الهواء فغطت جزءا كبيرا من الوادي حتي قضي علي كل اخضر ويابس في الوادي ...
بعد مرور ساعتان ...
استيقظت لأجد نفسي ملقاً في الصحراء ،ملابسي باليه و الرمال في كل بقعة من حولي ، قمت هائماً علي وجهي أركض في مسار دائري لا ادري اين وجهتي ،فكل

قطر هنا يتشابه مع الاخر .. لم يتبق مني سوي القليل ، وما هو قليل حتي غلبني الكرب فاغفي علي،حاذيت حجرا كالمقعد فانطرحت عليه كما ينطرح القتيل و اغمضت عيناي المخضلتين بالدموع وانا اتمتم بكلمات غير مفهومة من شدة التعب وجفاف حلقي و الصيف القائظ ...

* * *

كان فقط يري من حوله صور مشوشة و أطياف تركض من كل حدب و صوب ،أحدهم ينادي بصوت امرأة خفيض : -الطبيب .. الطبيب ! -

لامس احدهم زراعه للحظات مستكشفا نبضه ثم القي بضوء خفيض علي عينيه ، تاركا اياه بنصف وعي .. اتخذ الأمر دقائق حتي فتحت عيناه بشكل كامل واستعاد وعيه ، بدأ يجول بنظره في الغرفة محاولا العثور علي اي شخص ،فوجد امرأة عجوز تتلو بعض آيات من كتاب الله ، نظرت له في ابتسامة هادئة .. ثم اقتربت منه .. ورنت الي وجهه الحزين الكاسف

- كيف حالك الأن -

قال صادق بصوت متقطع وخفيض

- لا أعلم ... أين انا ؟ -

- أنت في المشفي ، لكن لا تقلق ستسير الأمور بشكل جيد -

-أذكر فقط أنني فقدت وعيى في صحراء واسعة شديدة الحرارة ، ولا أعلم ما حدث بعد ذالك -

- لقد وجدوك ملقي في منزلك ، كانت الغرفة معتمة و باردة و الدماء تتدفق بجوارك من خلال رأسك ، فحملوك الي هنا فورا -

- منذ متي وأنا هنا ؟! -

- ثلاثة ... أعوام -

ضحك صادق بسخرية ،فما هو علي يقين منه انه قضي ثلاثة اعوام بالصحراء وليس المشفي ..

استطردت العجوز :

- لا بأس عليك ، يمكننا الحديث في وقت لاحق ،أرجو فقط أن تنال قسطا من

الراحة الي الغد ..-
شعر بالم حاد في رأسه فمد يده بحذر ، ولامس رأسه محاولا تحديد وقع الالم ، عثر علي الخيوط المكسوة بالدم ، فغاص جسده في راحة عميقة بعدما تسلل المخدر الي دمائه ...

* * *

في الصباح الباكر ...
تدفقت اشعة الشمس من خلال ثقوب النافذة بجواره ، اتجه بعضها يلامس عينيه النصف مغلقة اشاح بوجهه عنها لكنه تحسس رأسه مكان الألم ،فلم يجد شيئا وكأنها شفيت في غمضة عين ..
تحفزعلي طرف سريره محاولا استيعاب ما يحدث له ،رأي بجواره كتاب مقلوب علي الوجه الاخر بعنوان :-عن الفِراسة- ،نهض و تجرع القليل من المياه ثم بدل ملابسه التي كانت في حالة يرثي لها وكأنها خرجت تواً من فمِ كلب ..
خرج من غرفته وتوجه صوب الباب ، لف المقبض و فتحه ببطء فوجد جارته العجوز في مقابله تستند الي باب منزلها
- الي أين يا صادق - قالتها في حيرة ..
توقف بغتة ثم قال : - لدي موعد هام .. -

* * *

ضجيج شديد بداخل القاعة،يركض سريعاً ليلحق بالمحاضرة الأولي ،صدره يعلو ويهبط من شدة التعب، يصعد الي المنصة في النهاية ..
نظر الي الأوراق أمامه بأهتمام شديد ثم رفع رأسه الي من في قاعة المحاضرات، فصمت الجميع و أنتبهوا له .. امسك بطرف قميصه الابيض الكتاني ورتبه جيدا ثم لامس بكفيه راسه ليتأكد من أن شعره الاملس ما زال مرتباً
التقط أنفاسه و قال متلعثماً :
-اليوم لن أعطيكم محاضرة،أو بمعني أصح لن أعطيكم محاضرة في مجالنا،سأعطيكم محاضرة في علم النفس،كما ايضا اود ان أُسميها تجربة خاصة للغاية -

صمت قليلا ثم استطرد : - الاعتراف الاخير - ...
الخ .....

النهاية ...

62

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجليش ..
أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك
تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
website : www.fasla.org
E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com
Facebook.Com/Fasla.Pub